٩ ريال

إرشادُ الطُّلَّاب

إلى

فَضيلَةِ العِلمِ والعَمَلِ والآدابِ

للعَلَّامة الشيخ

محمَّد بن عبدالعَزيز المانع

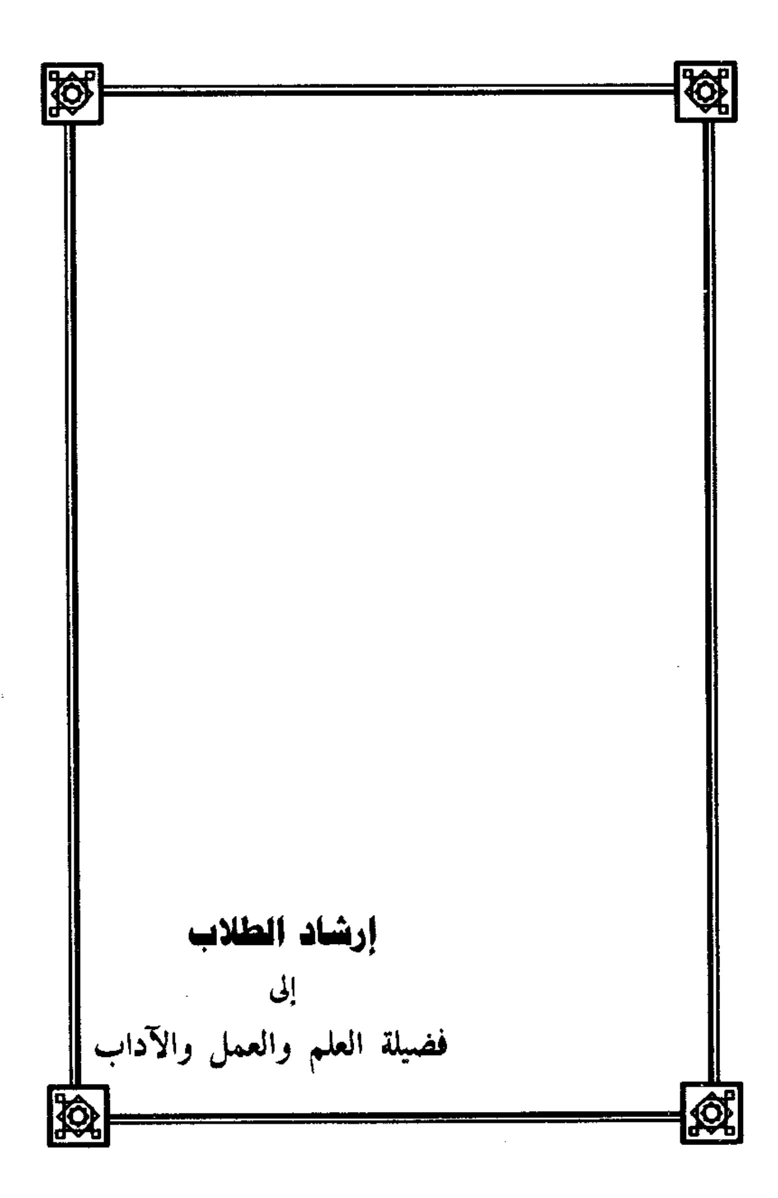
المتوفَّى سنة (١٣٨٥هـ) رحمهُ اللّه

تحقيق وتعليق

علي بن حَسن بن علي بن عبدالحميد

الحلبي الأثري

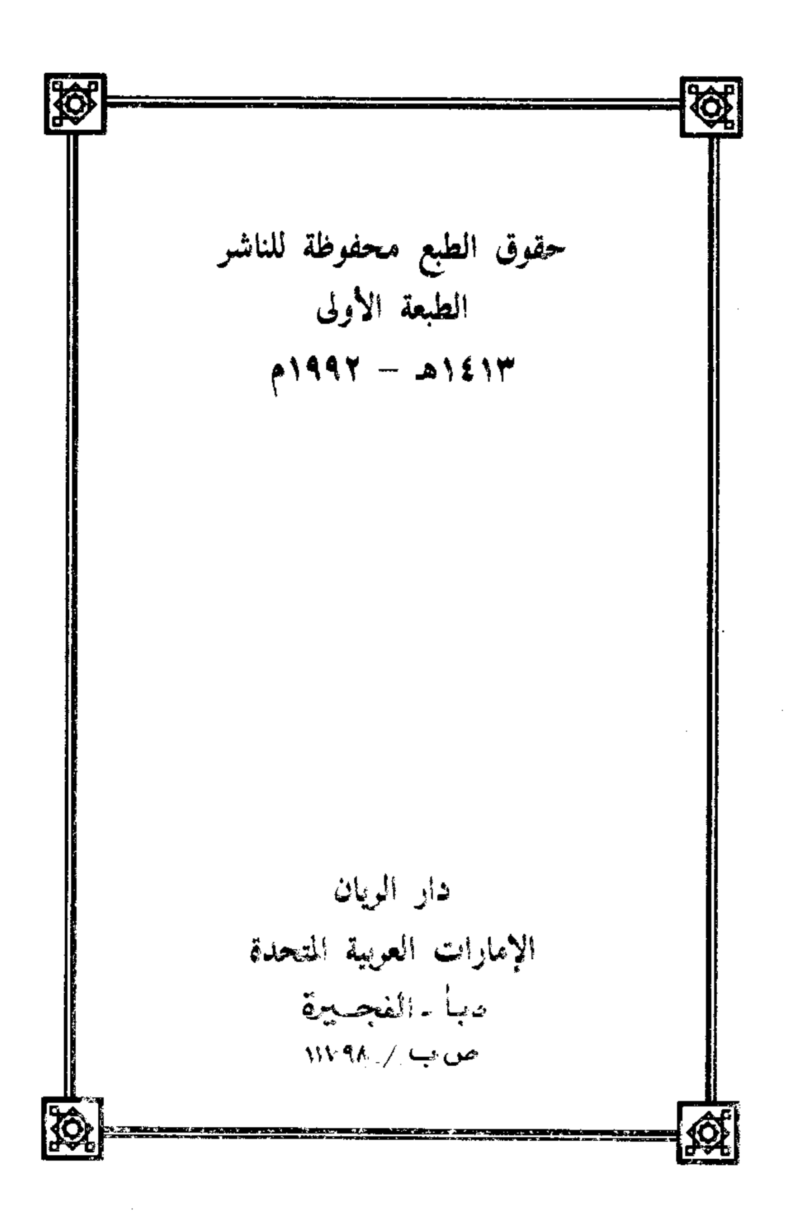
دار الريان



إرشاد الطلاب

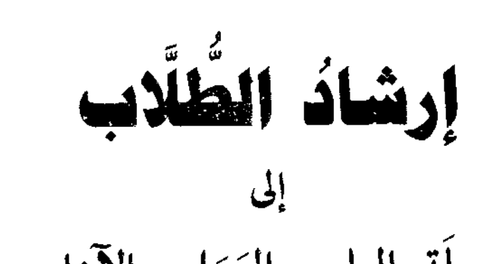
إلى

فضيلة العلم والعمل والآداب



الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دار الريان
الإمارات العربية المتحدة
دبا - الفجيرة
ص.ب / ١١٠٩٨



إلى

فَضيلَةِ العِلمِ والعَمَلِ والآدابِ

للعَلَّامة الشيخ

محمَّد بن عبدالعَزيز المانع

المتوفَّى سنة (١٣٨٥هـ) رحمهُ الله

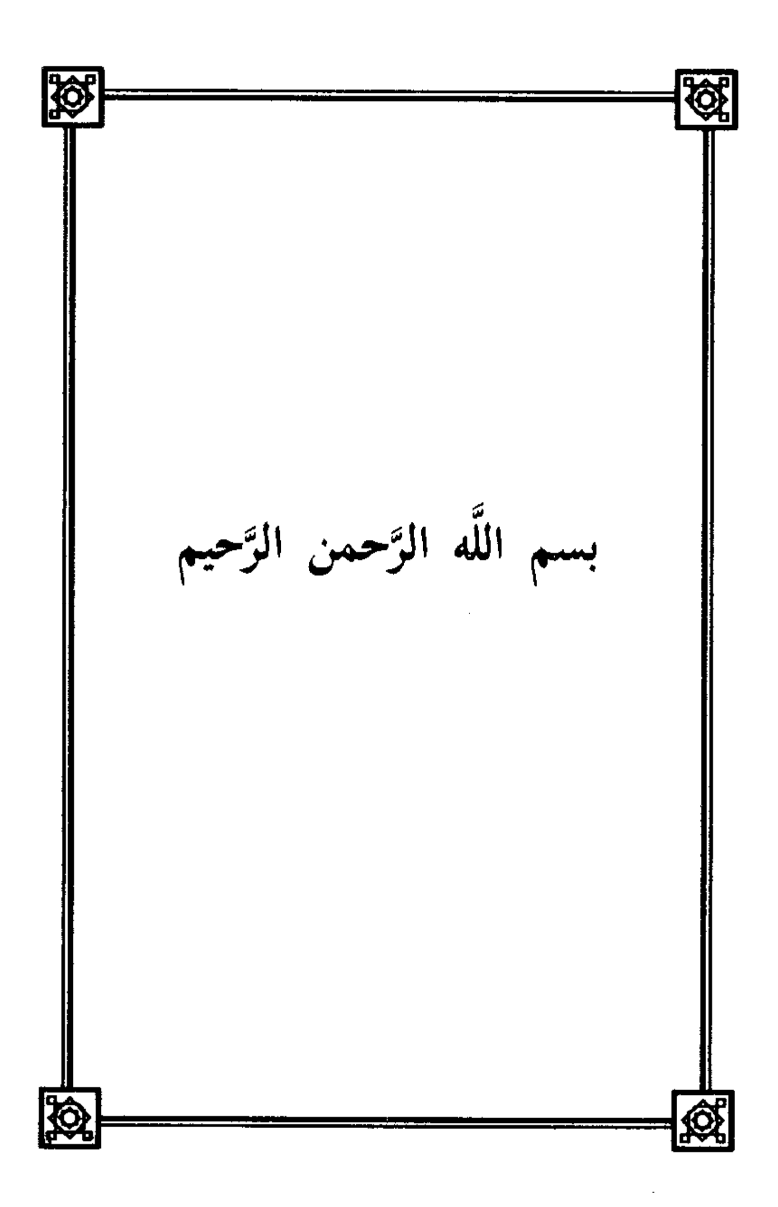
تحقيق وتعليق

علي بن حَسن بن علي بن عبدالحميد

الحلبي الأثري

دار الريان




بسم اللّٰه الرَّحمن الرَّحيم

تقديمٌ

إنَّ الحَمدَ للَّهِ نَحمدُهُ، ونَستَعينُهُ، ونَستغفرُهُ، ونعوذُ باللَّهِ مِن شرورِ أنفسنا، ومِن سيِّئات أعمالنا، مَن يَهدِهِ اللَّهُ فَلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضلِلِ فَلا هاديَ لهُ .

وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ .

وأشهَدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورَسولهُ .

أمَّا بَعد :

فإنَّ العلمَ حياةُ القلوبِ، وزَيْنُ النُّفوسِ، ورُشدُ العُقولِ :

رُبَّ مَيْتٍ قَد صارَ بالعِلم حَيًّا
ومُبَقّىً قَد حازَ جَهلًا وغَيَّا
فاقْتَنُوا العلمَ كي تَنالوا خُلوداً
لا تَعُدُّوا الحياةَ في الجَهلِ شيًّا[1]

---

(١) « تاريخ بغداد » (١١/١٧٩) .

لهذا، فَلا زالَ الأئمَّةُ والفُضلاءُ يُبيِّنونَ أثرَ العلمِ، ويُعرِّفونَ النَّاسَ بفضلِهِ، ويكشفونَ للطُّلَّاب دُرَرَه؛ فإنَّ مَن يجهلُ فضلَ العلمِ وعظيمَ أثرِهِ لا يَدنو منه، ولا يَلِجُ بابَه !

قال الحافظ أبو بكرٍ ابنُ المُقرىء : « مَشيتُ بسببِ « نُسخة مُفَضَّل بن فَضالة »[1] سبعين مرحلةً[2]، ولو عُرِضَتْ على خبَّازٍ برغيفٍ لم يَقْبَلها »[3] !!

... وما ذاك إلّا لأنَّهُ لم يعرفْ فَضلَ العلمِ، وبالتَّالي لم يُقَدِّرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ، ولَم يَعرِف أثَرَه ...

وهذه الرِّسالةُ النَّافعَةُ التي أُقدِّمها إلى الإخوَةِ الأفاضل مِن طلَّابِ العلمِ مثالٌ حَسَنٌ على تَنبيهِ الطُّلَّابِ وإرشادهم إلى فضائلِ العلمِ، وبيانِ الأَدَبِ في تَطلُّبهِ وإنفاقهِ .

قال الإمامُ محمَّد بن إبراهيم البُوشَنْجيُّ : « مَن أرادَ العلمَ والفقهَ بغيرِ أَدَبٍ، فَقَد اقْتَحَمَ أن يكذِبَ على اللَّهِ ورسولِهِ »[4].

---

(١) يُستدرك على « معرفة النُّسخ الحديثيَّة » للشيخ بكر أبو زيد .

(٢) هي المسافةُ يقطعُها السَّائرُ بينَ المنزلين .

(٣) « سير أعلام النُّبلاء » (١٦/٤٠٠) .

(٤) « المصدر السابق » (١٣/٥٨٦) .

ومِن ميِّزات هذه الرِّسالة أنَّها حَوَت ألواناً مِن العلمِ :

فَقَد حَوَتِ الشعرَ البديعَ النَّافعَ ...

وَحَوَت بيانَ فَضلِ العلم وَقَدْرِهِ ...

وَحَوَت أثرَ العَملِ بالنِّسبَةِ لطالبِ العلم ...

وَحَوَت ذِكرَ فَضلِ الإنصافِ وقَبول الحقّ ...

وَحَوَت بيانَ بعضِ المسائلِ العقائديَّة ...

وَحَوَت نُبذَةً فريدةً عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة ...

وَحَوَت مباحثَ عن الكُتُب وأهمِّيتها ...

وَحَوَت فَصلًا في الأذكارِ الشرعيَّة ...

وَحَوَت - غيرَ ذلك - ألواناً مِن الفوائدِ الزَّوائدِ التي لا يَستغني عنها طالبُ العلم في سائرِ مراحلِ طَلَبهِ .

فهي رسالةٌ - ولِلَّه الحمدُ - جدُّ نافعةٍ ومُفيدةٍ .

فاللَّهَ أسألُ أن يَرحمَ مؤلِّفَ هذه الرِّسالةَ ويغفِرَ له، وأن يَعفُوَ عن مُحقِّقها وناشِرها، إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ .

كتبه

أبو الحارث الحلبيُّ الأثريُّ

ضُحى يوم الثلاثاء :

٢٦ - صَفَر - ١٤١٣هـ

٢٥ - آب - ١٩٩٢ م



نُبذةٌ عن ترجمة المؤلِّف[1]

• هوَ محمَّد بن عبدالعزيز بن محمَّد بن مانع بن شُبْرُمة الوُهَيبي، التَّميمي .

• وُلدَ ونشأَ في « عُنيزة » مِن القَصيم بنَجدٍ سنة (١٣٠٠هـ) .

• رَحَلَ في طَلَبِ العلم إلى « بُريدة »، فالبصرة، فبغداد، واستقرَّ في الأزهر .

• طَلَبَ العلمَ على يدِ عَددٍ من المشايخ والعلماء، مثل الشيخ محمَّد عبده، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمود شكري الآلوسي، وأكثَرَ من مُلازمتهِ والأخذ عنه .

• رجعَ إلى بلدتهِ « عُنيزة » سنة (١٣٢٩هـ)، ودُعيَ للتَّدريسِ في البحرين وقطر فأجاب، ووَليَ الإفتاءَ الوَعظَ والقضاء .

---

(١) « الأعلام » (٢٠٩/٦) للزِّرِكْلي، و « المستدرك على مُعجم المؤلِّفين » (ص: ٦٨٢) لعمر رضا كحَّالة .

• وفي سنة (١٣٥٨هـ) دعاه الملك عبدالعزيز آل سعود للتَّدريس، فدرَّس في الحرم المكِّي، ثمَّ عُيِّنَ مديراً للمعارف في مكَّة، وَوَلِيَ رئاسةَ هيئةِ تمييز القضاء الشرعي.

• لهُ مؤلَّفاتٌ عديدةٌ مُفيدَةٌ، منها:

١ - «مختصر عنوان المجد في تاريخ نجد».

٢ - «سُبُل الهدى في شرح شواهد شرح قَطر النَّدى».

٣ - «الكواكب الدُّرِّيَّة على الدُّرَّة المُضيَّة».

٤ - «إقامة البُرهان في تحريم أخذِ الأُجرَةِ على تلاوة القرآن».

• ثمَّ طلبَ حاكمُ قَطَر سنة (١٣٧٧هـ) مِن السُّعوديَّة انتدابَهُ للعَمل فيها، فاستُجيبَ له، فَظَلَّ مُقيماً بها إلى أواخرِ حياتهِ.

• في أواخرِ حياتهِ مَرِضَ، فسافرَ إلى بيروت طَلَباً للعلاج، فماتَ فيها سنة (١٣٨٥هـ)، ثمَّ نُقلَ إلى قَطَر، فَدُفِنَ فيها.

رحمهُ اللَّه تعالى رحمةً واسعةً.

تقريظ « إرشاد الطُّلَّاب »[1]

والإشارَةُ إلى جلالةِ مصنَّفاتِ مؤلِّفهِ الفاضلِ الجليلِ، ونُبذَةٌ من سيرَةِ مؤلِّفهِ .

بقَلمِ الشابِّ النَّجيبِ الفائزِ منَ البلاغَةِ بأوفَرِ الحظِّ والنَّصيبِ محمَّد بن إبراهيم بن صالح الباكر حفظهُ اللَّه تعالى :

« الحمدُ للَّه الذي رَفعَ منازلَ الأبرار، وميَّزَ بالعَمَلِ الصَّالحِ مراتبَ السَّادَةِ الأخيار، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاّ اللَّه وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إلهٌ على عرشهِ المجيدِ استَوى، وعلى مُلكهِ العظيمِ احتَوى .

وأشهدُ أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ، وصفيُّهُ وخليلُهُ وحبيبُهُ، صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلهِ **وأصحابهِ السَّادَةِ الأخيار، الذين هُم إلى الحقِّ دعاةٌ وللخيرِ قادةٌ أبرار .**

---

(١) وهو مُلحقٌ مع الطبعة الأولى، ومطبوعٌ في آخرها، فرأيتُ في هذه الطبعة وَضعَه في أوَّلها .

أمَّا بَعد :

فلمَّا وقفتُ على كتاب « إرشادِ الطُّلَّاب إلى فضيلةِ العلم والعَمَلِ والآداب » وجدتُهُ كتاباً تكوَّنَ من ألفاظٍ عِذاب، ومَواهِبَ لا تُنالُ بيَدِ الاكتساب .

ولَقَد أعجَبَني ما رأيتُهُ من حُسنِ تَرتيبِهِ، وما احتَوى عليهِ من براعَتهِ وتَقريبهِ، **يجمُلُ بذَوي النُّفوسِ الزَّكيَّةِ الإمعانُ فيهِ، والعملُ بما تضمَّنهُ وانطَوى عليه**، يَشهدُ لمؤلِّفهِ بحُسنِ الاختيار، وأنَّهُ من أربابِ التَّأمُّل والاعتبار؛ فلذلك جَمَعَ هذا الكتابُ الجليلُ على صِغَرِ حَجمهِ ما يُعجِبُ كلَّ فاضلٍ نَبيلٍ .

وقَد طالَعتُ غيرَهُ من مؤلَّفاتهِ الجليلة، فوَجدتُها بحُسنِ السَّبكِ، وكَثرةِ الفوائدِ كفيلة، كيفَ لا وهي نتائجُ فِكرٍ من أرضعَتهُ العلومُ دَرَّ أخلافها، فأنِسَ بها ولم يَرضَ بخلافها، زَينُ المحافلِ، وفخرُ الأفاضلِ، كَوكبُ المجد السَّاطع، الشيخُ محمَّد بن الشيخ عبدالعزيز المانع، رفعَ اللّه قَدرهُ، وأطلَعَ في سماءِ الفضائلِ بَدرَهُ، ولا زالَ مَلجأً للطَّالبين، ومَنهلاً زُلالاً للمُستَفيدين .

وَلَقد أجادَ بَعضُ علماءِ بَغدادَ الأمجاد حيثُ قال لَمَّا رآى

بَعضَ مؤلَّفاتِ الشيخِ النَّحويَّةِ[1] :

دُرَرٌ قَد نَثَرتَها أم دَراري
نيِّراتٌ لها بديعُ نِـثـــارِ
أم لآلٍ قَرَنْتَها بجُمـــانٍ
أم عُقودٌ رصَّعتَها بِنُضارِ

ومنها :

لَو رأى بعضَ ما حَوى ٱبنُ هشامٍ
قال مَهلاً هشَّمتَ أنفَ افتخـــارِ
أو رأى ما نَظَرتَ فيه ٱبنُ مُعطـي
قال جارَ ابنُ مانعٍ بنُضـــــارِ
عَمرَكَ اللَّهُ هَل أتيتَ بِسِحـــرٍ
أم بسِفرٍ سَما على الأسفـــارِ
صُغتَ من لفظِكَ البَديعِ حُليّـاً
لمعاني عُلومكَ الأبكـــــارِ
دُمتَ يا مَن سَما بفَضلٍ وعلـمٍ
فوقَ هامِ السُّها مَدى الأعصـــارِ

---

(١) يشير إلى كتاب « شرح شواهد شرح القَطر »، كما في حاشية الطَّبعة الأولى مِن هذا الكتاب (ص:١١١) .

ولما دُعيَ إلى بلدنا، ولبّى الدَّاعي، عُهِدَ إليهِ بالوظائف الدِّينيَّة، والمراتب الشريفةِ السَّنيَّةِ، مثل القضاء الإفتاء، والوَعظِ والإمامةِ في الجمعَةِ، والخطابَةِ في الجامع الكبير، وبُنيَت المدرسةُ الأثريَّةُ، وعُيِّنَ مدرِّساً فيها، وشكرَ الفُضلاءُ مَسعاهُ، وحَمدوا سيرتَهُ ومنحاهُ، فعمَّرَ ربوعَ العلمِ، وأشادَ صُروحَ الفَهمِ، وأثنى عليهِ من طابَ خِيمُهُ، وسلمَ من داءِ الحسدِ أديمُهُ .

فمن ذلك قَصيدةٌ اشتملت على فوائدَ جميلةٍ، نظمها ذو الفَضل الرَّاسخ، والشرف الشامخ، ذو الفصاحَةِ والبيان، الشاعر المجيدُ أحمَدُ بن مُلاّ عبدالرَّحمن، وهي طويلةٌ نَقتَطفُ منها قوله :

فلا بالأماني حصَّلَ المَرءُ رِفعَــــةً
ولا جاءَ كَسلاناً مُناهُ ولا الحمــدُ
فإن رُمتَ نَيلَ العزِّ أو نَيلَ رُتبَــةٍ
هلمَّ لمغنى الشيخِ يحلو لكَ المجـدُ
تجدْ كَرَماً من كلِّ شيءٍ أرَدتَـــهُ
لدينكَ والدُّنيا ويَبدو لكَ السَّعـدُ

فني قَطَرٍ لاحَت كواكبُ سَعـــدِهِ
وجاءَ بعلمٍ فاضَ من بحرِهِ الرُّشـدُ
هو العَلَمُ الهادي لشِرعَةِ أحمَـــد
به يَهتدي من كانَ في قلبهِ حِقـدُ
وَلو عدَّدوا أهلَ العلومِ بَكثـــرَةٍ
فهذا لَعَمرُ اللّه في عَصرنا فَـــردُ

ومنها :

هلمُّوا سراعاً نحوَ درسِ محمَّـــــدٍ
بمحضرهِ يزدادُ من فضلكم عَـــدُّ
وعبدالعزيزِ الوارثُ المجدَ ذو الحمى
أبوهُ وأينَ المجدُ من مانعٍ يَغـــــدو
تَسَلسَلَ فرعاً من كرامٍ أماجـــــدٍ
وصفتُهم للمجدِ قال أنا العَبـــــدُ
حبيبٌ إلى الطُّلاَّبِ من بركاتـــــهِ
بنو قَطَرٍ بالعلمِ ألسُنهم لُـــــــدٌّ
سليمُ لسانٍ لا يميلُ لجاهــــــلٍ
وحاشاهُ إلاّ بالصَّوابِ لهُ الـــــرَّدُّ

ومن كانَ قَبلاً فيهِ جَهلٌ وريبـــةٌ

تَبَيَّنُ بعدَ الشكِّ إيقانهُ يَبـــــدو

فبانَ لنا علمٌ شذاهُ ونـــــورهُ

أضاءَ بأُفْقِ المكرماتِ له نـــــدٌّ

ودانَ له من كانَ للنَّاسِ محنـــةً

دهاهُ بعلمٍ زانهُ الحِلمُ والزُّهـــدُ

ooooo



إرشادُ الطُّلَّاب

الحمدُ للَّه الذي شرَحَ صدرَ مَن أرادَ هدايَتهُ للإسلامِ، ونوَّرَ بنورِ العلمِ والمَعرفَةِ بصائرَ ذَوي العُقولِ والأفهامِ .

والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمَّد الدَّاعي إلى دارِ السَّلام، وعلى آلهِ وأصحابهِ السَّادَةِ الكِرام النُّجوم الأعلام .

أمَّا بَعدُ :

فلمَّا كانَ العلمُ مِفتاحَ الخَيراتِ، وبابَ السَّعادات، وشرطاً غالباً للقُرَبِ والطَّاعات، إذ هوَ الحاملُ على شريفِ الخِصال، والموجبُ لمحبَّة ذي العَظَمَةِ والجلال، والمُنقذُ من ظُلُماتِ الجهلِ والضَّلال، أحبَبتُ أن أجمعَ كتاباً في فضيلةِ العلمِ والعَمَل، وكيفيَّةِ نَشرِهِ، والدَّعوَةِ إلى اللَّه، سائلاً منهُ تعالى أن يحفَظني من الخَطَلِ والزَّلَلِ، ولعلَّه

أن يكون باعثاً لِذَوي الهِمَم على تطلُّب الآداب والحِكَم، وسَّميتهُ :

« **ارشاد الطُّلاَّب الى فضَيلةَ العلم والعمَل والآداب** »

واللَّهَ أسأَلُ أن يجعلهُ خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً مُوصلاً إلى مرضاته، والفوزِ بجنَّات النَّعيم .

○○○○○

١ - فَصلٌ

في النيَّة وأنَّهُ يجب على كلِّ عاملٍ بَرٌّ إخلاصهِ للّه

قال ﷺ : « إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنَّما لِكُلِّ آمْرِىءٍ ما نَوى »[1]، فأخبرَ ﷺ أنَّ العملَ مُتعلِّقٌ بالنيَّة، فمَن حَسُنَت نيَّتهُ وعَمِلَ صالحاً، حصدَ يومَ القيامَةِ الكرامَةَ، ومَن عَمِلَ ضدَّ ذلك، حصدَ النَّدامَةَ :

فَمَن طَلَبَ العِلمَ لوَجهِ اللّه تعالى، نَفعَهُ اللّهُ بعِلمهِ، ونَفعَ بهِ غَيرَهُ مِن المُسلمين .

ومَن طَلَبَهُ للرِّياءِ، والسُّمعَةِ، ونَيلِ الحُطام، دخَلَ تَحتَ الحديثِ الذي رواهُ التِّرمذي[2] عن كَعب بن مالك، عن

(١) رواهُ البخاري (رقم: ١)، ومسلم (١٩٠٧) عن عُمَر .

(٢) (برقم : ٢٦٥٦) .

ورواه الحاكم (٨٦/١) والآجُرّي في « أخلاق العُلماء » (٥٩)، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٠٠/١٩)، والخطيب في « الجامع » (٢/١) . =

النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « مَن طَلَبَ العِلمَ لِيُماريَ بهِ السُّفهاء، أو يُجاريَ بهِ العُلماء، أو يَصرفَ بهِ وجوهَ النَّاسِ إليهِ، أدخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ » .

وقد استعاذَ النَّبيُّ ﷺ مِن هذا العلمِ الضَّارِّ الذي لَم يَنتفِع به صاحبهُ، لكونهِ غيرَ خالصٍ لوَجهِ اللَّه، كما في « صحيح مُسلم »[1] عن زيد بن أرقَم رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ كان يقولُ : « اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن علمٍ لا يَنفَعُ، ومِن قلبٍ لا يَخشَعُ، ومِن نَفسٍ لا تَشبَعُ، ومِن دَعوَةٍ لا يُستجابُ لها » .

= وفي سنده إسحاق بن يحيى ضعيفٌ .

ولهُ شاهدٌ :

أخرجهُ ابنُ ماجه (٢٥٤)، وابن حبّان (٧٧)، والحاكم (٨٦/١)، وابن عبدالبرّ (٢٢٦/١)، والخطيب في « الفقيه والمتفقّه »(٨٨/٢)، والبيهقي في « المدخل »(٤٨٠) .

وفي سندهِ عنعنةُ أبي الزُّبير وابن جُرَيج !

وهما مدلِّسان .

وللحديث شواهدُ أخرى، يجزم الواقف عليها بثبوتهِ .

(١) (برقم : ٢٧٢٢) .

وَروى أبو داود[1] عن أبي هُريرَة، قال : قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « مَن تَعَلَّمَ عِلماً مِّما يُبتَغى بِهِ وجهُ اللَّه عزَّ وجلَّ، لا يتعلَّمهُ إلاّ لِيُصيبَ بِهِ عَرَضاً مِن الدُّنيا، لَم يجد عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامَة »، يعني ريحها .

وروى التِّرمذي[2] عن أبي هُريرَة رضيَ اللَّه تعالى عنهُ قال : قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « يَخرُجُ في آخِرِ الزَّمانِ رجالٌ يَختِلونَ الدُّنيا بالدِّين، ويَلْبَسونَ للنَّاسِ جُلودَ الضَّأْنِ مِن اللِّين، ألسنتُهم أحلى مِن العَسَل، وقلوبُهم قلوبُ الذِّئاب »، يقول اللَّه عزَّ وجلَّ : أَبِي تَغْتَرُّونَ ؟! أم عليَّ تَجتَرِؤُونَ ؟! فبي

---

(1) (برقم : ٣٦٦٤) .

ورواه أحمد (٢/٣٣٨)، وابن ماجه (٢٥٢)، والحاكم (١/٨٥)، وابن عبدالبرّ في « الجامع »(ص: ٢٣٠)، والخطيب في « الاقتضاء »(١٠٢)، وابن حبّان (٧٨) .

وسندهُ حَسَنٌ .

وما قبلهُ شواهدُ تُؤكِّدهُ .

(2) (برقم : ٢٤٠٦) .

ورواهُ ابنُ المبارك في « الزُّهد »(٥٠)، ومِن طريقهِ ابنُ عبدالبرّ في « الجامع »(١/٢٣٢) .

وفي إسنادهِ : يحيى بن عُبيداللَّه بن مَوهَب، ضعّفهُ أهلُ الحديث، وتركهُ بعضهم، وترجمتهُ في « تهذيب التّهذيب »(١١/٢٥٣) مظلمةٌ .

حَلَفتُ لأبعَثنَّ على أُولئكَ فِتنَةً تَدَعُ الحليمَ حيرانَ » .

وقال ابنُ المبارك : **ما مِن شيءٌ أفضلَ مِن طَلَبِ العِلمِ للَّه، وما شيءٌ أبغَضَ إلى اللَّهِ مِن طَلَبِ العِلم لغَيرِ اللَّه** .

قالَ العلاَّمَة السَّفَّاريني في « غِذاءِ الألبَاب »[1] عند قولِ الإمام ابنِ عبدالقَويّ :

فَعِنْديَ مِن علمِ الحديثِ أمـانـةٌ
سأبذُلُها جَهدي فأَهدي وأهتَدي

« واعلَم أنَّ لزكاةِ العلمِ ونحوهِ طريقَين :

أحدُهما : تعليمهُ للعالمِ، فإنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى يُنَمِّي علمَهُ بذلك، ويُزَكِّيه .

والثَّاني : العَمَلُ به، فإنَّ العَمَلَ بهِ أيضاً يُنَمِّيهِ ويُكَثِّرهُ، ويفتحُ لصاحبِهِ أبوابَهُ وخباياهُ » .

ثمَّ قال رحمهُ اللَّه تعالى :

« واعلَم أنَّ الأمانَةَ تُضمَنُ بالتَّعدِّي، أو التَّفريط، والتَّعدِّي في العلم يشملُ كتمانَهُ عمَّن يستحقُّهُ فيُلجِمهُ اللَّهُ بلجامٍ من نارٍ[2]، ويشملُ اتِّخاذَهُ سُلَّماً يُتَوَصَّلُ بهِ إلى تناوُلِ

---

(١) (٤٩/١) .

(٢) يشيرُ إلى حديث : « مَن سُئلَ عن علمٍ فكتمهُ؛ ألجمهُ اللَّه =

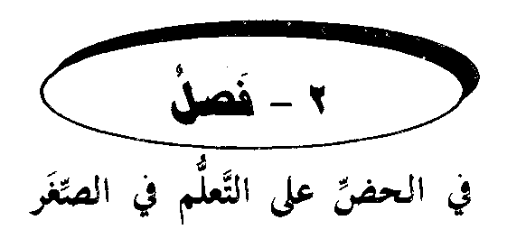
الدُّنيا، وشبَكةً يُصطادُ بها حُطامُها، ويشملُ عَدَمَ الإخلاصِ فيه » .

وقال العلاَّمَة القَسطَلاني في « شرحه »[1] للبخاري عن الكلام على أوَّلِ حديثٍ منه، وهو حديثُ عُمَر رضيَ اللّهُ تعالى عنهُ[2] :

« مَن أرادَ الغَنيمَةَ صحَّح العَزيمَةَ، ومَن أرادَ المواهِبَ السَّنيَّة أخلَصَ النِّيَّة، ومَن أخلَصَ الهِجرَةَ ضاعَفَ الإخلاصُ أجرَهُ، فمن كانَت هجرتهُ إلى اللّهِ ورسولِهِ، فهجرتهُ إلى اللّهِ ورَسولِهِ، **إنَّما تُنالُ المطالب على قَدْرِ همَّةِ الطَّالب، وإنَّما تُدرَكُ المقاصِد على قَدْرِ عناء القاصِد**، وعلى قَدْرِ أهلِ العَزم تأتي العَزائمُ » .

= بلجام من نارٍ يومَ القيامَةِ » .
وهو حَديثٌ صحيحٌ، له طرقٌ عِدَّةٌ، أفرَدتُها في جُزءٍ مُفرَد .

(١) وهو المسمَّى « إرشاد السَّاري » (٥٦/١) .
(٢) وهو حديثُ : « إنَّما الأعمالُ بالنيَّات » المتقدِّم .



٢ - فَصلٌ

في الحضِّ على التَّعلُّم في الصِّغَر

رَوى الإمامُ ابنُ عبدِالبَرّ[1] عن أبي أُمامَة رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ قال : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « أيُّما ناشىءٍ نَشَأ في طَلَبِ العِلمِ والعبادَةِ حتى يَكبُرَ وهوَ على ذلكَ، كَتَبَ اللَّهُ لهُ أجرَ سَبعينَ صِدِّيقاً » .

---

(١) في « جامع بيان العلم » (٨٢/١) .

ورواهُ الطبراني في « الكبير »(٧٥٩٠)، وفي « مسندِ الشاميين »(٣٤١٨)، وتمَّام في « فوائدهِ »(٢٤٢٨)، والشجري في « أماليه »(٥٣/١) .

وفي إسنادهِ يوسف بن عطيّة الصفّار، وهو متروكٌ .

ورُوِيَ الحديث على وجهٍ آخَرَ، وحَكَمَ الذَّهبي عليهِ في « الميزان » (٥٣٤/٤) بأنَّهُ : « مُنكَرٌ جدّاً » !

وانظر « السلسلة الضَّعيفة »(٧٠٠) لشيخنا لألباني .

وقال الحَسن : « طَلَبُ العِلمِ في الصِّغَرِ كالنَّقشِ في الحَجرِ » .

وأنشدَ أبو عُبَيدالله نِفْطَوَيْه لنَفسهِ رحمه الله :

أُراني أُنَسَّى ما تعلَّمتُ في الكِبَر
ولستُ بناسٍ ما تعلَّمتُ في الصِّغَر

وما العلمُ إلاّ بالتَّعلُّم في الصِّبا
وما الحِلمُ إلاّ بالتَّحلُّم في الكِبَر

ولو فُلِقَ القلبُ المُعلَّمُ في الصِّبا
لأُلْفِيَ فيه العلمُ كالنَّقشِ في الحجَر

وما العلمُ بعدَ الشَّيبِ إلاّ تَعسُّفٌ
إذا كَلَّ قلبُ المرءِ والسَّمعُ والبَصَر

وما المرءُ إلاّ اثنانِ عَقلٌ ومنطقٌ
فمن فاتهُ هذا وهذا فَقَد دَمَر[1]

قال العُلماء : **أفضلُ أوقاتِ التَّحصيل، شرْخُ الشباب، ووقتُ السَّحَر، وما بين العشائين** .

ويَنبغي لطالبِ العلم أن يستَغرق جميعَ أوقاتهِ، فإذا ملَّ من علمٍ اشتغلَ بعلمٍ آخَرَ .

---

(١) أي : هَلَك .

ولبَعضِ الفُضلاء :

بادِر إلى طَلَبِ العلمِ الشريفِ وإنْ
ضاقَت ولم تَصفُ أقواتٌ وأوقاتُ

ولا تُؤخِّر لِصَفْوٍ أو رَجا سَـعَـةٍ
فهم يقولون للتَّأخيرِ آفــاتُ

وقال عُمر بن الخطَّاب رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ : « **تَفَقَّهوا قبلَ أن تُسَوَّدوا** »[1].

قلتُ : لَقَد نَصَحَ أميرُ المؤمنين غايَةَ النُّصحِ، فإنَّ كثيراً مِمَّن يلي الوظائفَ وهو غيرُ أهلٍ لها، يكونُ ضُحَكَةً وهُزَءةً للخَلقِ بسببِ الجَهلِ بما أُنيطَت به عُهدَتهُ .

وفي هذا المعنى جاءَ الحديثُ، وهوَ قولهُ : « إنَّ اللَّهَ لا يَقبضُ العلمَ انتزاعاً يَنتزعهُ مِن النَّاس، ولكن يَقْبِضُ العلمَ بقَبضِ العُلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتَّخَذَ النَّاسُ رؤوساً جُهَّالاً

(١) علَّقهُ البخاري في « صحيحه »(١/١٦١-فتح) .
وقد فصَّلَ القولَ في تخريجِهِ ووصلهِ الحافظ ابنُ حَجَر في « تغليق التَّعليق » (٢/٨١-٨٢) .
وانظر « عُمدَة القاري »(١/٤٣٦) .
وقولُه : « تُسَوَّدوا »، أي : تَرَأَّسوا .

فَسئلوا فأفْتَوا بغَيرِ علمٍ، فَضَلُّوا وأضلُّوا »[1] .

○○○○○

---

(١) رواه البخاري (١/١٧٤)، ومسلم (١٧٥) عن عبدالله بن عَمْرو.

قلتُ :

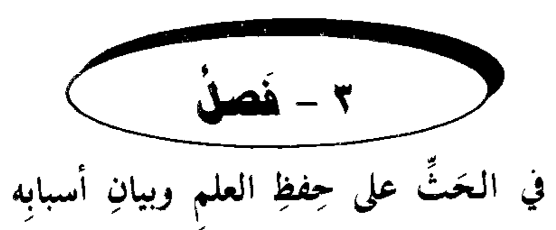
وهذا الحديثُ النَّبويُّ الجليلُ، عَلَمٌ مِن أعلامِ نبوَّتهِ ﷺ، ففيهِ الإشارَةُ إلى أمرين عظيمين :

الأوَّل : انتشار الجهل في الأُمَّة .

الثَّاني : بيانُ سببِ ضلالها، وهو ذهابُ العلماء .

فلا حياةَ – إذاً – للأُمَّةِ إلاَّ بعُلمائها، وفُهمائها، وكُبرائها؛ أمَّا إذا رَكبَ (المَوجَة) مَن هم دونهم من رؤوسِ (الحزبيَّةِ) ودُعاة السِّياسة المُضلَّة، فهذا – لا شكَّ – نَذيرُ خَطرٍ مريرٍ .

واللَّهُ المُستعان .



في الحَثِّ على حِفظِ العلمِ وبيانِ أسبابِه

لا شكَّ عندَ العُقلاء أنَّ العلمَ لا يُنالُ إلاّ بالحفظِ، ولكنَّ الحِفظَ لهُ أسبابٌ :

أعظمُها : تَقوى اللَّه .

وحُسنُ النِّيَّة .

وإدامَةُ النَّظر .

والتَّرفُّع عن مُجالسةِ السُّفهاء والبطَّالين .

ويرحمُ اللَّهُ القائلَ[1] :

شكَوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي

فأرشَدني إلى تركِ المَعاصـــــي

---

(١) انظر « ديوان الشافعي »(٥٤)، و « الفوائد البهيّة »(٢٣٣)، و « شرح ثلاثيّات المسند »(٧٦٩/١) .

وَقالَ اْعلَمْ بأنَّ العِلمَ نـــــورٌ

ونورُ اللَّهِ لا يُهدى لِعاصــــي

وَسُئِلَ الإمامُ محمَّد بن إسماعيل البُخاري عن دواءِ الحفظِ، فقال : **لا أعلمُ شيئاً أنفعَ للحِفظِ من نَهْمَةِ الرَّجلِ، ومُداوَمَةِ النَّظر** .

وقال بَعضُ الفُضلاء في أُمِّ وَلَدٍ له :

سلامٌ على مَن تيَّمَتني بـــظُـــرفـهـا

وَلَمَعَةِ خَدَّيها ولمحَةِ طَــرْفِـــهــــا

سَبَتني وأصْبَتني فتاةٌ مـلـيـحَـــةٌ

تحيَّرَتِ الأوهامُ في كُنهِ وَصْــفِـهــا

فقلتُ ذَريني واعذُريني فـإنَّـــنـــي

شُغِفتُ بتَحصيلِ العُلوم وكَـشْـفِـهـا

ولي في طِلاَبِ العلمِ والفَضلِ والتُّقى

غِنىً عن غنَاءِ الغانياتِ وعُـرفِـهـا

ولم يَزَل العُلماءُ الأعلامُ يَحضُّونَ على الحِفظِ والتَّفهُّم لما يُحفَظُ، لِعِلمهِم – رحمهم اللَّه تعالى – بما في ذلك من الفوائد، حتى قال بعضُهم – وهو الخليلُ بن أحمد شيخُ سيبَويهِ – :

ليسَ بعلمٍ ما حَوى القِمَطْـرُ[1]

ما العلمُ إلاّ ما حَواهُ الصَّدرُ

وقال بعضُ الأئمَّة الأعلامِ من عُلماء الأندلس، كما في « نَفح الطِّيب »[2] :

تَكتُبُ العِلمَ وتُلقي في سَفَط

ثمَّ لا تَحفَظُ لا تُفلحُ قَـط

إنَّما يُفلحُ مَن يَحفَـظُـهُ

بَعدَ فهمٍ وتَوَقٍّ مِن غَلَـط

وقال رحمهُ اللّه :

العِلمُ في القَلبِ ليسَ في الكُـتُـبِ

فلا تَكُن مُغرَماً باللَّهوِ واللَّـعِـبِ

فاحفَظهُ وافهَمهُ واعمَل كي تَفوزَ به

فالعِلمُ لا يُجتَنى إلاّ مَعَ التَّـعَـبِ

وقالَ أعرابيٌّ : حَرفٌ في تامورِك خَيرٌ من عَشرٍ في كتُبِك .

---

(١) القِمَطْرُ، هو الوعاء تُحفَظُ فيه الكُتُب .

(٢) لِلمَقَّري، المتوفَّى سنة (٧٥٨هـ) رحمه اللّه، ترجمتهُ في « شذرات الذَّهب » (٦/١٩٣) .

والتَّامورُ : عَلَقَةُ القَلبِ .

وسَمِعَ يونُس بنُ حَبيبٍ رجلاً يُنشدُ :

استَودَعَ العِلمَ قِرطاساً فَضيَّعهُ

وَبِئسَ مُستَودعُ العِلمِ القراطيسُ

فقال يونُسُ : قاتَلَهُ اللَّهُ[1] ما أشدَّ صيانتَهُ للعلمِ، وصيانتَهُ للحِفظِ، **إنَّ عِلمَكَ من رُوحِكَ**، وإنَّ مالَكَ مِن بَدَنِكَ، فَصُن عِلمَكَ صِيانتَكَ رُوحَكَ، وصُن مالكَ صِيانَتَكَ بَدَنَك .

○○○○○

---

(١) هذا دُعاءٌ خَرَجَ على غيرِ بابِهِ، يُرادُ به ها هُنا التَّعجُّب .

٤ - فَصلٌ

في ذِكرِ حكايَةِ الزُّهْريِّ معَ الخَليفَة عبدِالمَلِك بنِ مَروان

قال في « فَتْح المجيد »[١] : قال في « تَهذيب الكمال »[٢] عن **الوَليد المُوَقَّري** عن الزُّهري، قال :

« قَدِمتُ على عبدِالملك بن مَروانَ، فقال : مِن أينَ قَدِمتَ يا زُهريُّ ؟

قال : قَدِمتُ مِن مكَّة .

قال : ومَن خلَّفتَ يَسودُها ؟

قُلتُ : عَطاءُ بن أَبي رَباح .

قال : فمِن العَرَب ؟ أم مِن الموالي ؟

قُلتُ : مِن الموالي .

(١) (ص : ٤٠٤) .

(٢) (٢/ق ٩٣٤ - مخطوط) .

قال : فبِمَ سادَهُم ؟

قال : قُلتُ : بالدِّيانَةِ والرِّوايَةِ .

قال : **إنَّ أهلَ الدِّيانَةِ والرِّوايَةِ لَيَنبغي أن يَسُودوا .**

قال : فمَن يَسودُ أهلَ اليَمَن ؟

قال : طاووسُ بنُ كَيْسان .

قال : فمِن العَرَب ؟ أم مِن الموالي ؟

قال : قُلتُ : مِن الموالي .

قال : فبِمَ سادَهُم ؟

قُلتُ : بما سادهُم به عطاءٌ .

قال : إنَّه لَيَنبَغي ذلك .

قال : فمَن يَسودُ أهلَ مِصرَ ؟

قُلتُ : يَزيدُ بنُ أبي حَبيب .

قال : فمِن العَرَب ؟ أم مِن الموالي ؟

قال : قُلتُ : مِن الموالي .

قال : فمَن يَسودُ أهلَ الشام ؟

قُلتُ : مَكحولٌ .

قال : فمِن العَرَب ؟ أم مِن الموالي ؟

قُلتُ : مِن الموالي، عَبدٌ نوبيٌّ أعتَقَتهُ امرَأةٌ من هُذيل .

قال : فَمَن يسودُ أهلَ الجزيرة ؟

قُلتُ : مَيمون بن مِهْران .

قال : فَمِن العَرَب ؟ أم مِن الموالي ؟

قال : قُلتُ : مِن الموالي .

قال : فمَن يسودُ أهلَ خُراسان ؟

قال : قلتُ : الضَّحَّاك بن مُزاحم .

قال : فمِن العَرَب ؟ أم مِن الموالي ؟

قال : قُلتُ : من الموالي .

قال : فمَن يسودُ أهلَ البَصرَة ؟

قال : قُلتُ : الحَسَن البَصري .

قال : فمِن العَرَب ؟ أم مِن الموالي ؟

قُلتُ : مِن الموالي .

قال : وَيلَكَ، ومن يسودُ أهلَ الكوفَة ؟

قال : قُلتُ : إبراهيم النَّخعي .

قال : فمِن العَرَب ؟ أم مِن الموالي ؟

قال : قُلتُ : من العَرَب .

قال : وَيلَكَ يا زُهريُّ، فرَّجتَ عنِّي، واللّهِ لتَسودُنَّ الموالي على العَرَب في هذا البَلَد، حتى يُخطَب لها على المنابر

والعَرَبُ تحتها .

قال : قُلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، **إنَّما هو دينٌ ، مَن حَفِظَهُ سادَ ، ومَن ضيَّعَهُ سقَطَ** » .

فتأمَّل هذه القصَّة العجيبةَ ، وانظُر كيف رَفَعَ حفظُ العلم ودِرايتُهُ أُولئك السَّاداتِ حتى ارتفَعَ مِقدارهُم على مَن هو أرفَعُ منهم نسباً ، **فَلَعلَّكَ أن تَجِدَّ وتَجهَدَ في حِفظِ العلمِ الذي هو سبَبُ السَّعادَةِ في الدُّنيا والآخرَة لمن عملَ بهِ** .

وقال الإمام أبو محمَّد بن حَزم لَمَّا حَصَلَ بينهُ وبينَ بَعضِ ملوكِ الأندلس وَحشةٌ اقتضَت إحراقَ بعضِ كُتُبه :

دَعُوني مِن إحراقِ رِقٍّ وكـــاغَـــدٍ[1]
وَقولوا بعلمٍ كي يرى النَّاسُ مَن يَدري

فإن تَحرِقوا القِرطاسَ لم تَحرِقوا الــذي
تَضمَّنه القِرطاسُ بل هُوَ في صَــدري

يَسيرُ مَعي حَيثُ استقلَّت ركائــبــي
وينزلُ إن أنزِل ويُدفَنُ في قَــبــري

وقَد كان عِلمُ أوائلِ السَّلفَ بالصُّدورِ ، لا بالسُّطورِ ،

---

(١) هي بعضُ أنواع الوَرَق .

ولهذا اختلفوا في جوازِ كتابةِ الحديثِ[1]، والأصحُّ جوازهُ؛ لقوله ﷺ : « اكتُبوا لأبي شاهٍ »[2] .

ooooo

(١) يُراجع « تَقييد العلم » للخطيب البغدادي، ففيهِ تَفصيلُ القَولِ في هذه المسألة .

(٢) رواه البخاري (١/١٨٣)، ومسلم (١٣٥٥) عن أبي هريرَة .

٥ - فصلٌ

في ذِكرِ أوّل مَن صنَّفَ مِن عُلماءِ الإسلام

قال الإمام السُّيوطي في « التَّدريب »[١] :

أمَّا ابتداءُ تَدوينِ الحديثِ، فإنَّهُ وقعَ على رأسِ المئةِ في خلافةِ عُمَر بنِ عبدِالعَزيز بأمره، ففي « صحيح البُخاري »[٢] في أبواب العلم : « وكَتَبَ عُمر بن عبدِالعَزيز إلى أبي بكر بن حَزم؛ انظُر ما كان من حديثِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فاكْتُبهُ، فإنِّي خِفتُ دُروسَ[٣] العلم، وذهابَ العُلماء » .

قال الحافظ في « فتح الباري »[٤] : « يُستفادُ من هذا ابتداءُ تَدوين الحديث النَّبويِّ، فأفادَ أنَّ أوَّلَ من دوَّنهُ بأمرِ عُمر بن عبدِالعَزيز الإمامُ ابنُ شِهاب الزُّهْريُّ .

---

(١) (١/٩٠) .

(٢) (باب : ٣٤) .

(٣) أي : اندثارَه .

(٤) (١/١٩٤) .

ثمَّ دُوِّنَت السُّنَن ممزوجَةً بأقوال الصَّحابَة رضيَ اللَّهُ عنهم، وفتاوى التَّابعين، وأوَّل من جمعَ ذلك ابنُ جُرَيج بمكَّة، وابنُ إسحاق، ومالكٌ بالمدينة، والرَّبيع بن صُبَيح، وسعيد بن أبي عَرُوبَة، وحمَّاد بن سلمَة بالبَصرة، وسُفيان الثَّوري بالكوفة، والأوزاعيُّ بالشام، وهُشَيم بواسِط، ومَعمَر باليمن، وجَرير بن عبدالحميد بالرَّيِّ، وابنُ المبارك بخُراسان، وكان هؤلاء في عَصرٍ واحدٍ، فلا يُدرى أيُّهم أسبق .

وهؤلاء كانوا في أثناء المئةِ الثَّانية .

ثمَّ تلا المذكورين كثيرٌ من أهل عَصرِهم » ا.هـ .

فظهَرَ أنَّ أوَّلَ مَن صنَّفَ الحديث هو الإمامُ ابنُ شهابٍ الزُّهريُّ، وقَد صرَّحَ بذلك الإمامُ أبو عُمَر بن عبدالبرّ في كتابه « جامع بيان العِلم وفَضله »[1] .

وقال الحافظُ الذَّهبي في « تَذكرة الحفاظ »[2] في ترجمة ابن جُريج :

قال أحمد بن حنبل : كان – يعني ابن جُرَيج – من أوعيةِ العلم، وهو وابنُ أبي عَروبَة أوَّل مَن صنَّف

(١) (١/٨٨) .

(٢) (١/١٧٠) .

الكُتُب » أ.هـ .

قلتُ : فيظهرُ من تحقيقِ الحافظ، أنَّ المُرادَ به الكُتُبُ المزوجةُ بأقوال الصَّحابة والتَّابعين، لا مُطلقاً .

وللإمام شيخِ الإسلام أبي العبَّاس أحمد بن عبدالحليم ابن عبدالسَّلام ابن تيميَّة رحمه اللَّه في الرِّسالة التي كتبها في مَذهب أهل المدينة[1] كلامٌ نَفيسٌ جديرٌ بالذِّكر .

قال رضيَ اللَّهُ عنه[2] :

« أمَّا « المُوطَّأ » ونحوهُ، فإنَّهُ صُنِّفَ على طريقةِ العُلماء المُصنِّفين إذ ذاك، فإنَّ النَّاسَ على عهد رسول اللَّه ﷺ كانوا يَكتبونَ القُرآن، وكانَ النَّبيُّ ﷺ قَد نهاهمُ أن يَكتُبوا عنهُ غيرَ القرآن؛ قال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « مَن كَتَبَ عَنِّي شيئاً غيرَ القُرآنِ فَلْيَمْحُهُ »[3]، ثمَّ نُسخَ ذلك عند جُمهورِ العُلماء؛ حيث أَذِنَ في الكتابَةِ لعبدِاللَّه بن عَمرو، وقال :

---

(١) وهي المسمَّاة « صحَّة أصول مذهب أهل المدينة »، وهي مطبوعة في مصر، بتحقيق زكريا علي يوسف .

(٢) (٢٠/٣٢١ - ضمن « مجموع الفتاوى ») .

(٣) رواه مسلم (٣٠٠٤) .

« اكتُبوا لأبي شاهٍ »[1] ، وكتب لِعَمرو بن حَزم كتاباً[2] .

قالوا : وكانَ النَّهيُ أوَّلاً خَوفاً مِن اشتباهِ القُرآن بغيره ، ثمَّ أُذنَ لماَّ أُمنَ ذلك ، فكان النَّاسُ يَكتُبون من حديثِ رسول اللَّه ﷺ ما يَكتُبون ، وكَتَبوا أيضاً غَيرهُ ، ولم يَكونوا يُصنِّفون ذلك في كُتُبٍ مصنَّفة إلى زَمَنِ تابعي التَّابعين ، فَصنُنِّف العِلمُ ، فأوَّل مَن صنَّفَ ابنُ جُرَيح شيئاً في السِّيَر ، وصنَّفَ سَعيدُ بن أبي عَروبَة ، وحمَّاد بن سَلَمة ، ومَعمَر ، وأمثالُ هؤلاء يُصَنِّفون ما في البابِ عن النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة والتَّابعين .

وهذه هي كانَت كُتُب الفقهِ ، والعلم ، والأصولِ ، والفُروع ، بعد القُرآن؛ فصنَّفَ مالكٌ « المُوطَّأ » على هذه الطَّريقة .

وصنَّف بَعدَهُ عبدُاللَّه بن المُبارك ، وعبدُاللَّه بن وَهب ، ووكيعُ بن الجرَّاح ، وعبدالرَّحمن بنُ مهدي ، وعبدالرزَّاق ، وسعيد بن مَنصور ، وغير هؤلاء . انتهى .

فممَّا نقلناهُ عن هؤلاء الأئمَّة يتبيَّن أنَّ أوَّلَ مَن صنَّفَ في الحديثِ مُجرَّداً ، الزُّهريُّ .

---

(1) تقدَّم تخريجه .

(2) انظر تفصيلَ ذلك في كتاب « دراسات في الحديث النَّبوي » =

وأوَّل مَن جمعَ الحديث ممزوجاً بكلامِ الصَّحابة والتَّابعين ابنُ جُرَيج .

تنبيهٌ : قال في « تذكرة الحفَّاظ »[1] : تُوُفِّي – يعني الزُّهري – في رمضان سنَة ١٢٤هـ أربعٍ وعشرين ومئةٍ .

وقال في ترجمة ابن جُريج[2] : قال الواقدي : ماتَ ابنُ جُريج في أوَّل ذي الحجَّة سنة ١٥٠هـ خمسين ومئة .

وأمَّا أبو بكر بن حَزم الذي كَتَبَ إليه عُمر بنُ عبدالعَزيز، فهو أبو بكرٍ بن محمَّد بن عَمرو بن حَزْم – بفتح المُهملة، وسكون الزَّاي – الأنصاريُّ المدنيُّ، المتوفىَّ سنة ١٠٢هـ اثنتين ومئةٍ، في خلافة هشامِ بن عبدالملك، وهو ابنُ أربعٍ وثمانين سنَةً .

ولجدِّه عَمرو صحبةٌ، ولأبيهِ محمَّد رؤيَةٌ، وكان نائبَ عُمر بن عبدالعزيز في الإمرة والقضاء على المدينة، كما في « القَسطلاني »[3] .

= (١٣٩/١) للدكتور محمَّد مصطفى الأعظمي .

(١) (١٠٨/١) للإمام الذَّهبي .

(٢) « تذكرة الحُفَّاظ » (١٧١/١) .

(٣) هو « إرشاد السَّاري »، فانظر (١٩٥/١) منه .

قال : وَنَسَبَهُ المؤلِّف – يعني البخاري – إلى جدِّ أبيه، ولشهرته به .

قلت : فَعلى هذا يكون الزُّهريُّ إنَّما جَمَعَ الحديثَ بأمرِ عُمر بن عبدالعزيز بواسطةِ نائبهِ أبي بكر ابن حزم، واللَّهُ أعلم .

تتمَّةٌ : أبو بكرٍ المذكور ليس هو أبا بكرٍ الذي هو أحدُ الفُقهاء السَّبعة الذين ذكرهم النَّاظمُ بقوله[1] :

إذا قيلَ مَن في العلمِ سبعَةُ أبْحُـــرٍ
روايتهُم ليسَت عن العلمِ خارِجَـــه
فقُل : هُم عُبيدُاللَّه عُروَةُ قاســـمٌ
سعيدٌ أبو بكرٍ سُليمان خارجَـــــه

فإنَّ هذا أبو بكرِ بنُ عبدِالرَّحمن بن الحارث بن هشام القُرشي المَخزومي .

قال ابنُ خلِّكان[2] : « أحدُ الفُقهاء السَّبعة بالمدينة، وكُنيتهُ اسمهُ .

قال : وكان من سادات التَّابعين، وكان يُسمَّى :

---

(١) قارن بتعليقي على « النُّكت على نُزهة النَّظر » (ص: ١٤٥) بقلمي .
(٢) في « وفيات الأعيان »(٢٨٢/١) .

راهبَ قُريش، وأبو الحارث - أخو أبي جَهل بن هشام - من جُملة الصَّحابة رضي اللَّه تعالى عنهم، ومولدهُ في خلافة عُمر ابن الخطَّاب رضي اللَّه عنه، وتُوفِّي سنة ٩٤هـ أربع وتسعين للهجرة، رحمه اللَّه .

وهذه السَّنة تُسمَّى : **سَنَةَ الفُقهاء**[١]، وإنَّما سُمِّيَت بذلك، لأنَّهُ مات فيها جماعةٌ منهم، وهؤلاء الفقهاءُ السَّبعَةُ كانوا بالمدينة في عَصرٍ واحدٍ، وعنهم انتشرَ العلمُ والفُتيا في الدُّنيا .

ooooo

---

(١) « طبقات ابن سعد »(١٤٣/٥) .

٦ - فَصلٌ

في الحَثِّ على تَقييدِ العلمِ بالكتابةِ

روَى الإمامُ أبو عُمَر بن عبدالبَرِّ في « جامع بيان العِلم وفَضله »[١] عن أبي هُريرَة رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ قال : لمَّا فُتحَت مكَّةُ قامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فذكرَ الخُطبَةَ خُطبَةَ النَّبيِّ ﷺ، قال : فقام رجلٌ من اليَمَن، يقالُ لهُ : أبو شاه، فقال : يا رسولَ اللَّه اكتُبوا لي، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : « اكْتُبوا لأبي شاهٍ » يعني الخُطبَة .

وعن أنسَ بن مالكٍ قال : قال رَسولُ اللَّه ﷺ : « قيِّدوا العِلمَ بالكتابَة »[٢].

---

(١) (٨٤/١) .

وقَد سبقَ تخريج الحديث .

(٢) حديثٌ حَسَنٌ، له طرقٌ عِدَّةٌ، جَمَعها وخرَّجها، وطوَّلَ الكلامَ عليها شيخنا الألباني في « سلسلة الأحاديث الصَّحيحة »(رقم:٢٠٢٦) .

وعَن سَوادَةَ بن حيَّان قال : سمعتُ مُعاويَة بن قُرَّة يقول : مَن لم يَكتُب العِلمَ فلا تَعُدُّوه عالماً .

وعن الأعمش قال : قال الحسن : إنَّ لنا كُتُباً نتعاهدُها .

وقال الخليل بن أحمد : **اْجعَل ما تكتُب بيتَ مالٍ، وما في صَدرِكَ للنَّفقَة .**

وعن سليمان بن موسى قال : يجلسُ إلى العالم ثلاثةٌ : رجلٌ يأخذ كُلَّ ما سمع، فذلك حاطبُ ليلٍ، ورجلٌ لا يكتُب، ويسمع، فذلك يُقال له : جليس العالم، ورجلٌ يَنتقي - وهو خيرهم -، وهذا هو العالمُ .

وذكرَ المُبرِّدُ قال : قال الخليل بن أحمد : **ما سمعتُ شيئاً إلاّ كتبتهُ، ولا كتبتهُ إلاّ حَفِظتهُ، ولا حفظتُهُ إلاّ نفعني .**

قلت : لَقَد نَصَحَ نَفسَهُ هذا الإمامُ، وأفادَ مَن اقتَدى به، فإنْ حَفِظَ ما كتَبَ نَفَعَهُ، وإلا صارَت حالهُ كحالِ القائل :

أَمَا لَو أَعِي كُلَّ ما أَسْمَـــعُ
وأحفَظُ مِن ذاكَ ما أجمَـــعُ

ولَمَ أستَفِد غيرَ ما قَد جَمَعتُ

لَقيلَ أنا العالِمُ المُقْنِعُ

ولكنَّ نَفسي إلى كُلِّ فَنٍّ

مِن العلمِ تَسمَعُه تَنزِعُ

فلا أنا أحفَظُ ما قَد جَمَعتُ

ولا أنا مِن جَمعهِ أشبَعُ

وأقعُدُ للجَهلِ في مجلِسٍ

وعِلميَ في الكُتْبِ مُستَودعُ

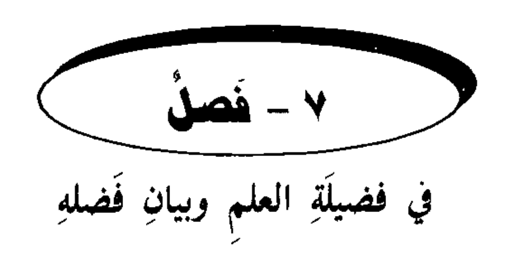
ومَن يكُ في علمهِ هكذا

يَكُن دَهرَهُ القَهْقَرى يَرجِعُ

إذا لم تَكُن حافظاً واعياً

فَجَمْعُكَ للكُتبِ لا يَنفعُ

○○○○○



في فضيلَةِ العلمِ وبيانِ فَضلهِ

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ والمَلائكَةُ وأُولوا العِلمِ قائماً بالقِسطِ لا إلهَ إلاّ هُوَ العَزيزُ الحَكيم ﴾ [آل عمران: ١٨] .

قال الإمامُ المُحقِّق ابنُ القيِّم رحمهُ اللَّه تعالى[١] :

« استَشهَدَ سبحانهُ وتعالى بأُولي العلمِ على أجلِّ مشهودٍ عليه، وهو تَوحيدهُ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ والمَلائكَةُ وأُولوا العلمِ قائماً بالقِسطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، **وهذا يَدلُّ على فَضلِ العلمِ وأهلهِ من وجوهٍ** :

أحدها : استشهادهم دونَ غيرهم من البَشرِ .

الثّاني : اقترانُ شهادتهم بشهادتهِ .

---

(١) في « مِفتاح دار السّعادة »(٤٨/١ - بتحقيقي) وهو تحتَ الطَّبع .

الثَّالث : اقترانها بشهادةِ الملائكةِ .

الرَّابع : أنَّ في ضِمنِ هذا تَزكيتَهم وتَعديلَهم، فإنَّ اللَّه لا يستشهدُ من خَلقهِ إلاّ العُدولَ، ومنه الأثر المعروفُ عن النَّبي ﷺ : « يَحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ، يَنفُونَ عنهُ تَحريفَ الغالين، وانتحالَ المُبطلين، وتأويلَ الجاهلين »[1].

الخامس : أنَّهُ وَصَفَهُم بكونهم أُولي العلم، وهذا يدلُّ على اختصاصهم به، وأنَّهم أهلهُ وأصحابهُ ليس بمُستعارٍ لهم .

السَّادس : أنَّهُ سبحانه استشهدَ بنفسه، وهو أجلُّ مشهودٍ به وأعظمُه وأكبرُه، وهو شهادةُ أن لا إلهَ إلاّ اللّه، والعظيمُ القَدرِ إنَّما يَستشهدُ على الأمرِ العَظيم أكابرَ الخَلقِ وساداتِهم .

الثَّامن : أنَّهُ سبحانهُ جَعَلَ شهادتهم حُجَّةً على المُنكرين، فهم بمنزلَةِ أدلَّتهِ وآياتهِ، وبراهينهِ الدَّالَّةِ على توحيدهِ .

وقد أطالَ رحمهُ اللّهُ بذكرِ الأوجهِ الدَّالَّةِ على فَضيلةِ

---

(١) حديثٌ حَسَنٌ، انظر له تعليقي على كتاب « الحِطَّة في ذكرِ الصِّحاح السِّتَّة »(ص: ٧٠)، لصدِّيق حسن خان .

العلم مُستنبطاً لها من الآيَةِ العظيمة ... » .

إلى أن قال رحمهُ اللّه :

« وقال المُزني : رُويَ عن ابن عبَّاس أنَّهُ قال : إنَّ الشياطينَ قالوا لإبليس : يا سيِّدَنا مالنا نراكَ تَفرحُ بموتِ العالِمِ ما لا تَفرحُ بموتِ العابد، والعالمُ لا نُصيبُ منهُ، والعابدُ نُصيبُ منه ؟!

قال : انطَلِقوا، فانطَلَقوا إلى عابدٍ، فأتَوهُ في عبادتهِ .

فقالوا : إنَّا نُريدُ أن نسألكَ، فانصرف، فقال إبليسُ : هل يَقدرُ ربُّكَ أن يجعَلَ الدُّنيا في جوفِ بيضةٍ ؟

فقال : لا أدري .

فقال : أترونهُ كَفَرَ في ساعَةٍ .

ثمَّ جاؤوا إلى عالمٍ في حَلَقتهِ يُضحِكُ أصحابَهُ ويُحدِّثهم، فقالوا : إنَّا نُريدُ أن نسألكَ .

فقال : سَلْ !

فقال : هَل يَقدِرُ ربُّكَ أن يجعَلَ الدُّنيا في جوفِ بيضةٍ ؟

قال : نعم .

قالوا : كَيف ؟

قال : يقولُ : كُن فيكون .

فقال : أتَرَون ذلكِ لا يَعدو نفسه، وهذا يُفسدُ عليَّ عالَماً كثيراً .

وقد رُوَيت هذه الحكايَةُ على وجهٍ آخَر؛ .وأنَّهم سألوا العابدَ، فقالوا : هل يَقدرُ ربُّكَ أن يخلقَ مثلَ نَفسهِ ؟

فقال : لا أدري .

فقال : أتَرَونهُ لم تنفعهُ عبادتهُ مع جهله ؟

وسألوا العالَمَ عن ذلك، فقال : هذه المسألةُ مُحالٌ، لأنَّهُ لو كان مثلَهُ، لم يكن مخلوقاً، فكونه مخلوقاً، وهو مثلُ نفسهِ : مُستحيلٌ، فإذا كان مخلوقاً، لم يكن مثله، بل كان عبداً من عبيده، وخَلقاً من خلقه .

فقال : أتَرَونَ هذا يهدمُ في ساعةٍ ما أبنيهِ في سنين ؟!

أو كما قال » .

وَرَوى ابنُ عبدالبَرِّ[1] عن عبدِاللّه بن عَمرو بن العاص رضيَ اللّهُ تعالى عنه، عن رسولِ اللّه ﷺ أنَّهُ قال : « قليلٌ

---

(١) في « جامعِه »(١/٢١) .

ورواهُ الخطيب في « الفقيه والمتفقِّه »(١/١٥)، وأبو نُعيم في « الحلية » (٥/١٧٣-١٧٤)، والبيهقي في « المدخل »(رقم:٤٥٣) .

وسندهُ ضَعيفٌ؛ فيه إسحاقُ بنُ أسيدٍ، وهو ضَعيفٌ .

مِن العلمِ خَيرٌ من كثيرِ العبادَةِ، وكفى بالمرءِ عِلماً إذا عَبَدَ اللَّه، وكفى بالمرءِ جَهلاً إذا أُعجبَ برأيهِ، إنَّما النَّاسُ رجلانِ : عالمٌ، وجاهلٌ، فلا تُمارِ العالمَ، ولا تُحاوِرِ الجاهلَ » .

وروى أيضاً[1] عن أنس، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « خَيرُ دينكُم أيسرُهُ وخيرُ العبادَةِ الفقهُ » .

وعن قَتادَة أنَّهُ قال : **بابٌ من العلمِ يحفظهُ الرَّجلُ لصلاحِ نَفسه، وصلاحِ مَن بَعدَه، أفضلُ من عبادَةِ حولٍ** .

وقال أيضاً : تَذاكُرُ العلمِ بعضُ ليلةٍ أحبُّ إليَّ من

---

(1) « جامع بيان العلم »(1/25-26) .

وفي سندهِ أبو عبداللَّه العُذري؛ قال أبو سُفيان السَّروجي - شيخهُ في هذا الحديث - : « ويُكرهُ الحديثُ عن العُذريُّ » .

قال شيخنا في « الصَّحيحة »(4/179) :

« يُشيرُ إلى ضَعفهِ، وقَد أوردهُ الذَّهبي في « الميزان » لهذا الخبر، وقال : إنَّهُ منكر .

ومِن طريقِه أخرجهُ الدَّيْلَمي (2/115) دون الشطر الأوَّل » .

قلتُ :

وقَد أورَدَ شيخنا للقطعة الأولى مِن الحديث شواهدَ عدَّةً جَزَمَ معها بثبوتها .

وأمَّا القطعة الثَّانية : فقد تتبَّعَ شواهدَها أخونا الفاضل عبدالرَّحمن الفَرْيْوائي في تعليقه على « الزُّهد »(رقم:222) لوكيعِ بن الجرَّاح .

إحيائها .

وكان سُفيان الثَّوري يقول : **ما مِن عملٍ أفضلُ من طَلَبِ العلم إذا صحَّت النيَّة** .

وقالَ الإمامُ الشافعيُّ : طَلَبُ العلمِ أفضلُ منَ صلاةِ النَّافلة .

وقال ابنُ وَهبٍ : كُنتُ عند مالكٍ بن أنس، فحانت صلاةُ الظُّهرِ أو العَصرِ، وأنا أقرأُ عليه، وأنظُرُ في العلمِ بين يديهِ، فجمعتُ كُتبي، وقمتُ لأركعَ، فقال لي مالكٌ : ما هذا ؟ قلتُ : أقومُ إلى الصَّلاةِ، قال : فقال : إنَّ هذا لَعَجبٌ، ما الَّذي قُمتَ إليهِ بأفضلَ من الذي كُنتَ فيهِ إذا صحَّت النيَّة[1] .

وقال أبو هُريرَة : **لكلِّ شيءٍ عمادٌ، وعمادُ هذا الدِّين الفقهُ**، وما عُبِدَ اللَّهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدِّين، وَلَفَقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ[2] .

---

(١) « جامع بيان العلم وفضله »(١/٣٠) .
وهذه القصَّةُ فيها فائدَةٌ غاليةٌ تُبيِّنُ قَدرَ مجالسِ العلم، وعظمةِ مجالسةِ أهلهِ .

(٢) ومَن ينسِبُ ذلكَ إلى الرَّسولِ الكريم ﷺ فقد أخطأ، فقوله :=

ولقد أحسنَ القائلُ – رحمهُ اللَّه – حيثُ قال :

تعلَّم فإنَّ العلمَ زَينٌ لأهلـــــــــهِ
وفَضلٌ وعنوانٌ لكلِّ المحامـــــــدِ

وكُن مُستَفيداً كلَّ يومٍ زيــــــــادَةً
منَ العلمِ واسبح في بُحورِ الفوائـــدِ

تفقَّه فإنَّ الفقهَ أفضَلُ قائـــــــدٍ
إلى البرِّ والتَّقوى وأعدلُ قاصـــــدِ

هوَ العَلَمُ الهادي إلى سُنَنِ الهُـــدى
هو الحِصنُ يُنجي من جميعِ الشدائدِ

فإنَّ فَقيهاً واحداً مُتَورِّعـــــــــاً
أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابـــدِ

قال الإمامُ أحمد : **النَّاسُ أحوجُ إلى العلمِ منهم إلى الطَّعامِ والشراب**، لأنَّ الطَّعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليهِ في اليومِ مرَةً، أو مرَّتين، والعلمُ يُحتاجُ إليهِ في كلِّ وقتٍ .

= « فَقيهٌ واحدٌ ... » إلخ : رواه الترمذي في « سننه »(٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، وفي سندهِ مُتهمٌ !

وانظر « العلل المتناهية »(١٢٦/١) لابن الجوزي، و « كشف الخفاء » (١٣٢/٢) للعجلوني .

وقال ابنُ القيِّم في « مِفتاح دار السَّعادَة » :

« ويُحكى عن بعضِ العُلماء أنَّهُ ركبَ مع تُجَّار في مركبٍ، فانكسرَت بهم السَّفينَة، فأصبَحوا بعدَ عزِّ الغِنى في ذُلِّ الفَقرِ، ووصلَ العالمُ إلى البَلد، فأُكرمَ، وقُصدَ بأنواعِ التُّحَف والكرامات، فلمَّا أرادوا الرُّجوعَ إلى بلادهم قالوا له : هَل لكَ إلى قومكَ كتابٌ أو حاجَةٌ ؟ فقال : نعم، تقولون لهم : إذا اتَّخذتم مالاً يغرقُ إذا انكسرَت السَّفينَة، **فاتَّخذوا العلمَ تجارَةً** » .

واجتمعَ رجلٌ ذو هيئةٍ حسنةٍ، ولباسٍ جميلٍ ورِواءٍ[1]، برجلٍ عالمٍ، فجسَّ المخاضَة[2]، فلم ير شيئاً، فقالوا : كيفَ رأيتَه ؟ فقال : رأيتُ داراً حَسَنَةً مزَخرَفَةً، ولكن ليس بها ساكن » .

ولبعض العلماء[3] رحمهم اللّه تعالى :

النَّاسُ مِن جِهَةِ التَّمثيلِ أكفـــاءُ
أبوهُـمُ آدمٌ والأمُّ حـــــــــوَّاءُ

(١) أي : هيئة حسنة .
(٢) أي : نظر الطَّريق وتفحَّصه .
(٣) ويُنسَب لعليٍّ رضيَ اللّهُ عنهُ .

نَفْسٌ كَنَفسٍ وأرواحٌ مُشاكِلـــةٌ

وأعظُمٌ خُلِقَتْ فيهم وأعضـــاءُ

فإن يكُن لَهُمُ مِن أصلهم حَسَبٌ

يُفاخرونَ بهِ فالطِّينُ والمـــاءُ

ما الفَضلُ إلاّ لأهلِ العلمِ إنَّهُـمُ

على الهُدى لِمَن استَهـدى أدِلاَّءُ

وَقدْرُ كلِّ امرىءٍ ما كان يُحسنـهُ

وللرِّجالِ على الأفعالِ أسمـــاءُ

وضدُّ كلِّ امرىءٍ ما كان يَجهلـهُ

والجاهلونَ لأهلِ العلمِ أعـــداءُ

ولا ينبغي للفاضلِ أن يتركَ علماً من العلومِ النَّافعةِ التي تُعينُ على فهم الكتابِ والسُّنَّةِ إذا كان يعلمُ من نفسهِ قوَّةً على تعلُّمهِ .

ولا يَسوغُ له أن يَعيبَ العلمَ الذي يجهلهُ ويُزري بعالمه، فإنَّ هذا نَقصٌ ورذيلةٌ، فالعاقلُ ينبغي له أن يتكلَّم بعلم، أو يسكتَ بحلـــمٍ، وإلاّ دخَلَ تحتَ قولِ القائل :

أتاني أنَّ سَهلاً ذمَّ جَهــلاً
عُلوماً ليسَ يَعرفُهُنَّ سَهــلُ
عُلوماً لو قَراها ما قَلاهـــا
ولكنَّ الرِّضى بالجَهلِ سَهلُ

○○○○○



٨ - فَصلٌ

في فضيلةِ الرّحلة في طلبِ العلم

لم يَزَلِ العُلماءُ قديماً وحديثاً، وهُم يُسافِرونَ إلى الأمصارِ، ويجوبونَ الفَيافي، ويَقطَعونَ البِحار، طَلَباً للعلمِ الشريفِ من مظانِّه، واقتباساً له مِن أماكنِهِ .

وقَد رَحَلَ جابرُ بنُ عبدالله إلى عبدِالله بن أُنيَس ليَسمعَ منهُ حديثاً واحداً مسيرَةَ شهرٍ، كما ذكرهُ البُخاري[1] .

وقَد وردَ في فضيلةِ الرّحلة إلى طلبِ العلم آثارٌ :

منها ما رواهُ الإمامُ أبو عُمر بن عبدالبَرِّ[2]، عن زِر بن حُبَيش، قال : جاءَ رجلٌ من مُراد[3]، يقال له : صَفوان بن

(١) هو مِن معلّقاته في « صحيحه »(١/١٧٣) .
وانظر لهُ : « تغليق التّعليق »(٥/٣٥٣) .
(٢) في « الجامع »(١/٣٢) .
(٣) أي : مِن قبيلة مُراد .
انظر « جمهرة لسان العرب »(ص:٤٠٦-٤٠٧) لابن حزم .

عسّال إلى رسولِ اللَّه ﷺ، وهو في المسجد مُتَّكِىءٌ على بُردٍ لهُ أحمَر، قال : فقلتُ : يا رسولَ اللَّه إنِّي جئتُ أطلبُ العلمَ، قال : « مَرحباً بطالبِ العلم، إنَّ طالبَ العلمِ لتَحُفُّ به الملائكَةُ، وتُظِلُّهُ بأجنحتِها، فيركبُ بعضها بعضاً حتى يَبلغوا السَّماءَ الدُّنيا من حبِّهم لما يطلبُ، فما جئتَ تطلبُ ؟ » قال : قلتُ : يا رسولَ اللَّه : لا أزالُ أسافر بين مكَّة والمدينة فأفتِني عن المسح على الخُفيَّن ... »[1] وذكر الحديث .

وعن جميلٍ[2] بن قيَس أنَّ رجلاً جاءَ من المدينَةِ إلى أبي الدَّرداء وهو بدمشق، فسألهُ عن حديثٍ ؟ فقال لهُ أبو الدَّرداء : ما جاءَت بكَ حاجَةٌ، ولا جئتَ في طَلَبِ التِّجارَة، ولا جئتَ إلاّ في طَلَبِ الحديث ؟ فقال الرَّجل : بلى ؛ فقال أبو الدَّرداء : أبشر، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : « ما مِن عبدٍ يخرجُ يطلبُ علماً إلاّ وَضعَت له الملائكةُ

---

(١) حديثٌ صحيحٌ ؛ رواهُ أحمد (٤/٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١)، والنسائي (٩٨/١)، والطبراني في « الكبير »(٧٣٧٣) و (٧٣٨٢) و (٧٣٨٨)، وابن ماجه (٢٢٦)، وابن خُزيمة (١٩٣)، وابن حبَّان (٨٥)، وغيرهم، مُطوَّلاً ومختصراً .

(٢) كذا « الأصل » وإنَّما هو كثير بن قيس، انظر له « تهذيب التَّهذيب »(٤٢٦/٨) .

أجنحتها، وسلكَ به إلى الجنَّة، وإنَّه يستغفرُ للعالِمِ مَن في السَّمٰواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في البحر، وإنَّ فَضلَ العالم على العابد، كَفَضلِ القَمرِ ليلَة البَدرِ على سائرِ الكواكب، وإنَّ العُلماء هم ورثَةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا دِرهماً، ولكنَّهم ورَّثوا العلمَ، فمن أَخَذَهُ أَخَذَ بحظٍّ وافرٍ »[1] .

وما أحسنَ ما قيلَ :

العلمُ ميراثُ النَّبيِّ كذا أتى
بالنَّصِّ والعُلماءُ هُم وُرَّاثُـــهُ

ما خَلَّفَ المُختارُ غيرَ حديثِهِ
فينا فذاكَ مَتاعهُ وأثاثُـــــهُ

قال سعيد بن المُسيِّب : إن كنتُ لأسيرُ الليالي والأيَّام في طَلَبِ الحديث الواحِد .

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١) و (٣٦٤٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، والدارمي (٩٨/١)، وأحمد (١٩٦/٥)، وابن حبَّان (٨٩) مِن طريقين يُقوِّي أحدهما الآخَر .

وقوَّاهُ الحافظُ في « الفتح »(١٤٧/١) .

ولابن حبَّان في « صحيحه »(٢٩١/١) تعليقٌ جميلٌ على هذا الحديث، فليُراجَع .

وقال بُسْرُ[1] بن عُبيدالله الحَضرميّ : إن كنتُ لأركبُ إلى المِصر منَ الأمصار في الحديث الواحد لأسمعَهُ .

وقال الشعبيُّ : لو أنَّ رجلاً سافَرَ من أقصى الشَّام إلى أقصى اليَمَن ليَسمعَ كلمَةَ حكمةٍ ما رأيتُ أنَّ سفرَهُ ضاع .

وقال قيسُ بن عُبادة : خَرجتُ إلى المدينَةِ أطلبُ العلمَ والشَّرف .

فَهِمَّةُ ذَوي الهِمَم العاليَةِ ما تَدَعُهم يَرضَونَ بالدُّون، بل تحملهُم إلى طَلَبِ المجدِ في أيِّ مكانٍ يكون .

انظُر إلى قولِ القائل، المُصيب غير الفائل[2] :

قَوِّض رِكابَكَ عَن أرضٍ تُهانُ بهـــا
وَجانِبِ الذُّلَّ إنَّ الذُّلَّ يُجتنَـــــبُ
وارحَل إذا كانَ في الأوطانِ منقصةٌ
فالمندَلُ الرَّطْبُ في أوطانهِ حَطَـــبُ

---

(١) في « الأصل » : « بِشر »، والصَّواب ما أثبتُّهُ، فانظر « سيَر أعلام النُّبلاء » (٤/٥٩٢) .

وقد أخرجَ الأثرَ الدَّارمي (١/١٣٦)، وابن عبدالبرّ (١/٩٥)، والخطيب في « الرِّحلة في طَلَبِ الحديث »(رقم:٥٧) .

(٢) يُقال : فالَ رأيُهُ، أي : أخطأَ، فالفَائلُ، هو المُخطىءُ .

وكما أنَّ العُلماء يرحلونَ لطَلبِ العلم، كذلك يَرحلونَ لنشرهِ وتَعليمهِ، فقد يكونُ العالمُ بين عامَّةٍ لا يَعونَ الخَيرَ ولا يَقبلونهُ، أو بينَ حَسَدَة يُنافسونهُ، فيحملهُ ذلك إلى مُفارقَةِ أوطانهِ، والبُعد عن معاهدِ أهلهِ وجيرانه .

وقد قالَ العُلماء : **أزهَدُ النَّاسِ بالعالمِ جيرانهُ وأهلُ بيتهِ** .

وفي هذا المعنى يقولُ الإمامُ ابنُ حَزمٍ الأندلسيُّ يُخاطب قاضي الجماعةِ بقُرطبة :

أنا الشَّمسُ في جوِّ العُلوم منيـــــرةٌ
ولكنَّ عَيبي أنَّ مَطلِعيَ الغَـــــربُ

وَلو أنَّني من جانبِ الشَّرقِ طالـــعٌ
لجدَّ على ما ضاعَ من ذِكريَ النَّهَـبُ

ولي نَحوَ آفاقِ العِراقِ صبَابـــــةٌ
ولا غَروَ أن يَستَوحشَ الكَلِفُ الصَّبُّ

فأنْ يُنزلِ الرَّحمنُ رَحليَ بينهـــــم
فحينئذٍ يَبدو التَّأسُّفُ والكَـــربُ

فكَم قائلٍ أغفلتُهُ وهو حاضـــــرٌ
وأطلبُ ما عنهُ تجيءُ به الكُتْـــبُ

هنالك يَدري أنَّ للبُعدِ غَصَّـــــــةً
وأنَّ كسادَ العلمِ آفتُهُ القُـــــــرْبُ
فَواعَجباً مَن غابَ عنهم تَشوَّقـــوا
لهُ ودُنوُّ المرءِ مِن دارِهمِ ذَنْـــــبُ

○○○○○

٩ - فَصلٌ

في بيانِ فَضيلةِ نَشرِ العلمِ والدَّعوةِ إلى اللَّه تعالى

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَن أحسَنُ قَولاً مِمَّن دَعا إلى اللَّهِ وعَمِلَ صالحاً وَقالَ إنَّني مِن المُسلمين ﴾ [فصلت:٣٣] .

ولَمَّا تلا الحَسَن هذه الآية قال : هذا حبيبُ اللَّه، وهذا وليُّ اللَّه، هذا صفوةُ اللَّه، هذا خيرةُ اللَّه، هذا أحبُّ أهلِ الأرضِ إلى اللَّه؛ أجابَ اللَّهَ في دعوته، ودعا النَّاسَ إلى ما أجابَ اللَّهَ فيه من دعوتِهِ، وعَمِلَ صالحاً في إجابتِهِ، وقال : إنَّني مِن المُسلمين، هذا خليفةُ اللَّه(١).

وقال ﷺ : « لأنْ يَهديَ اللَّهُ بكَ رَجلاً واحداً خيرٌ

---

(١) رواهُ عبدُالرزَّاق في « تفسيره »(١٨٧/٣) .

وفيه انقطاعٌ، فمَعمَرٌ لم يَروِ عن الحسن، إنَّما أدركَ جنازتَهُ .

وقولُهُ : « هذا خليفَةُ اللَّه » ! فيه نَظرٌ بيِّنٌ، فَليُنظَر له « معجم المناهي اللفظيَّة »(ص:١٥٦) للأخ الشيخ بكر أبو زيد .

لكَ من حُمْرِ النَّعَم »[1].

وَروى الحافظُ ابنُ عبدِالبرِّ عن ابنِ القاسمِ، قال : كُنَّا إذا ودَّعنا مالكاً يقولُ لنا : **اتَّقوا اللَّه، وانشروا هذا العلمَ، وعَلِّموه ولا تَكتموه** .

وعن الحَسَن، قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « مِن الصَّدقَةِ أن يتعلَّم الرَّجُلُ العِلمَ فيَعملَ به ثمَّ يُعلِّمَهُ »[2].

قال : ورُوِّينا عن عبدالرَّحمٰن بن مَهدي قال : كانَ أنسٌ يقول : بلغني أنَّ العلماءَ يُسألون يومَ القيامة كما يُسأل الأنبياء – يعني عن التَّبليغ – .

وقال ابنُ مَسعودٍ في قوله تعالى : ﴿ إنَّ إبراهيمَ كانَ أمَّةً قانتاً للَّه ﴾ [النحل: ١٢٠]، قال : الأُمَّة : المُعلِّم للخَير، والقانت : المُطيع[3].

وقال وَهبُ بن مُنبِّهٍ : سمعتُ سُفيان بن عُيَينَة يقول في

---

(١) رواه البخاري (٥٨/٧)، ومسلم (٢٤٠٦) .

(٢) رواه ابن عبدالبرّ في « الجامع » (١٤٨/١) بسندٍ صحيحٍ، لكنَّه مُرسَلٌ ! فهو ضَعيفٌ .

(٣) رواهُ عبدالرزَّاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم، كما في « الدُّرِّ المنثور » (١٧٦/٥) .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وجَعَلَني مُباركاً أينما كُنتُ ﴾ [مريم : ٣١]، قال : مُعلِّماً للخير .

وكان تميمٌ الدَّاريُّ رضيَ اللَّهُ عنه يَعَظُ النَّاسَ، ويُعلِّمهم الخَيرَ كلَّ يومِ جمعة في مسجد رسولِ اللَّه ﷺ في خلافةِ عُمَر رضيَ اللَّهُ عنه، كما ذكره[1] الإمامُ المَقريزي في « الخُطَط » .

ولم يَزَل عُلماءُ الإسلامِ وهم يجتهدون في نشرِ العلمِ وبثِّه، ويختارون لذلك المجامعَ العظيمة، كيومِ الجمعة .

وقَد ذَكَرَ المُؤرِّخون في ترجمةِ شيخِ الإسلام ابنِ تيميَّة أنَّهُ يُنصبُ لهُ كُرسيٌّ كلَّ يومِ جُمعَةٍ يُذكِّر النَّاس[2]، وإنَّما اختارَ يومَ الجُمعة، لاجتماع النَّاس فيه، فيكونُ أبلغَ في التَّبليغ .

وكذلك الإمامُ الحافظُ عبدُالغنيِّ بن عبدالواحد المقدسي صاحبُ « العُمدة »؛ كانَ يَقرأُ الحديثَ بعد صلاةِ الجمعةِ بحلقةِ الحنابلةِ، بجامعِ دمشق[3]، ويجتمعُ النَّاسُ إليهِ، وحَصَلَ لهُ قَبولٌ، فكانَ سريعَ الدّمعةِ، فحسدَهُ الدِّماشقةُ، فحسَّنوا

---

(١) ورواهُ ابنُ عساكرَ في « تاريخ دمشق » (٣/٣٦٠ - تهذيبه) .

(٢) انظر « العقود الدريَّة »(ص: ٥) لابن عبدالهادي، و « الدُّرر الكامنة »(١/١٥٣) لابن حجر .

(٣) « تذكرة الحُفَّاظ »(٤/١٣٧٥) للذَّهبي .

لأحدِ الحنابلةِ أن يُذكِّرَ أيضاً بعدَ صلاةِ الجُمعةِ في الجامع المذكور، ومقصودهم في ذلك التَّشويش على الحافظ، لكونهم حَسدوه رحمه اللَّه كما ذكره الإمام الدُّلجي في كتاب « الفِلاكَة والمَفْلوكون[1] » وهو من أنفعِ الكُتُب وأحسنها لتَهذيبِ الأخلاقِ، ومُداواةِ النُّفوس .

وللَّه دَرُّ القائل :

ذاكرِ النَّاسَ بالعُلومِ لتَحيـــا
لا تكُن من أُولي النُّهى ببعيـدِ
إن كَتَمتَ العُلومَ أُنسيتَ حتَّى
لا تُرى غيرَ جاهلٍ وبَليـــــدِ
ثمَّ أُلجمتَ في القيامَةِ نـــاراً
وتلهَّبْتَ في العذابِ الشَّديـــدِ

○○○○○

---

(١) (ص: ٦٨-٦٩) .

١٠ - فَصلٌ

فيما يَنبغي لِناشرِ العلمِ أن يتحلَّى به من الفضائل

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل هـٰذهِ سبيلي أدْعوا إلى اللَّهِ عَلى بَصيرَةٍ أناْ وَمَن اتَّبعني وَسُبحانَ اللَّهِ وَما أنا مِنَ المُشركين ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

فأمرَ سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ أن يقول : هذه الدَّعوةُ التي أدعو إليها، والطَّريقةُ التي أنا عليها، مِن الدُّعاء إلى توحيد اللَّه، وإخلاص العبادةِ له وحدهُ، سبيلي وطَريقي، ودَعوَتي إلى اللَّهِ على بصيرةٍ من ذلك، وعلمٍ ويقينٍ منِّي به أنا، ويَدعو إليه أيضاً على بصيرةٍ مَن اتَّبعني وصدَّقني .

وقوله تعالى : ﴿ وَسُبحانَ اللَّهِ ﴾ أي : وقُل تَنزيهاً للَّه وتَعظيماً لهُ مِن أن يكونَ لهُ شريكٌ، ﴿ وما أنا مِنَ المُشركين ﴾ أي: بَريءٌ منهم، لستُ منهم، ولا هُم منِّي .

فدلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الدَّاعي إلى اللَّه لا بدَّ أن يكونَ

على بصيرةٍ، وأن يكونَ مُخلصاً عملَه لوجهِ اللَّهِ تعالى، داعياً بالرَّحمةِ واللِّين والرِّفق .

قال في « فتح المجيد »[1] : وقال العلَّامةُ ابنُ القيِّم في معنى قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٣] الآية :

« ذكرَ سُبحانهُ وتعالى مراتبَ الدَّعوةِ، وجَعَلها ثلاثةَ أقسامٍ بحسبِ حالِ المَدعُوِّ، فإنَّهُ :

إمَّا أن يكونَ طالباً للحقِّ، مُحبّاً له، مُؤْثِراً لهُ على غيرهِ إذا عَرَفَهُ؛ فهذا يُدعى بالحكمة، ولا يَحتاج إلى مَوعظةٍ وجدالٍ .

وإمَّا أن يَكونَ مُشتغلاً بضدِّ الحقِّ، لكن لو عرفهُ آثَرَهُ واتَّبعهُ؛ فهذا يحتاج إلى الموعظةِ بالتَّرغيب والتَّرهيب .

وإمَّا أن يكونَ مُعانداً مُعارضاً، فهذا يُجادَلُ بالتي هي أحسن، فإن رَجَعَ وإلَّا انتقَلَ معهُ إلى الجلَّاد إن أمكنَ » . انتهى .

فتأمَّل هذه المراتبَ الثَّلاث **يظهَر لكَ خَطأُ كثيرٍ مِّمن يزعمُ أنَّهُ يَدعو إلى اللَّه وإلى دينهِ مع ارتكابهِ الطَّيشَ والعَجَلَة ،**

---

(١) (ص : ٨١) .

وعَدمَ الرِّفقِ بالمُخالفِ، وهَل هذا إلا من قلَّة التَّدبُّر لآياتِ اللَّه، والتَّأمُّل في سيرةِ النَّبيِّ ﷺ، وأصحابه رضيَ اللَّهُ عنهم .

وسُئلَ سَهلُ بن عبداللَّه التُّستَري : متى يجوزُ للعالم أن يعلِّمَ النَّاس ؟ قال : « إذا عَرفَ المُحكمات من المُتشابهات »، يعني إذا كانَ بَصيراً بدين اللَّهِ، عالماً بالكتابِ والسُّنَّة .

ورَوى الإمامُ ابن عبدالبَرّ[1]، عن ابن عبَّاسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال : « علِّموا ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا » ثلاثاً .

وعن أبي سعيدٍ الخُدري قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « تعلَّموا العلمَ، وتعلَّموا السَّكينة والوقار، وتَواضَعوا لِمَن تتعلَّمون منه، ولِمَن تُعلِّمونه، ولا تكونوا جبابرةَ العلماء »[2].

---

(١) في « الجامع »(١/١٥١) .

ورواهُ البخاري في « الأدب المفرد »(١٢٣٠)، وأحمد (١/٢٣٩ و ٢٨٣ و ٣٦٥) .

وفي سندهِ ليثُ بن أبي سُليم، وهو مُختلطٌ .

وقَد حسَّنَ الحديث شيخنا الألباني في « سلسلة الأحاديث الصَّحيحة » (١٣٧٥) بشواهدِهِ، فَليُنظَر .

(٢) رواهُ ابنُ عبدالبرّ (١/١٥١)، وفي سندهِ عبدُالرَّحمن بن زيد بن أسلم، وهو متروكٌ، وقَد اضطربَ فيه : =

وقال موسى بن عبيدالله الخاقاني :

عَلِّم العلمَ مَن أتاكَ لعلـــم
واغتَنِم ما حييتَ منهُ الدُّعاءَ
وَليَكُن عندكَ الفقيرُ إذا مــا
طَلَبَ العلمَ والغنيُّ سَــــواءَ

وذكرَ محمَّد بن الحَسَن الشيباني، عن أبي حنيفة قال : الحكاياتُ عن العُلماء ومجالستُهم أحبُّ إليَّ من كثيرٍ من الفقهِ، لأنَّها آدابُ القومِ وأخلاقهم .

وقال الإمامُ الشافعيُّ : مَن حَفِظَ القرآن، عَظُمَت حرمتهُ، ومَن طَلَبَ الفقهَ، نَبُلَ قَدرهُ، **ومَن عَرفَ الحديثَ، قويَت حُجَّتهُ**، ومَن نَظَرَ في النَّحوِ، رقَّ طبعهُ، ومَن لم يَصُن نَفسهُ، لم يَنفعهُ علمهُ .

= فراوه أبو نُعيم في « الحلية »(٣٤٢/٦) عن عُمَر !
وفيه – أيضاً – عبدُالرَّحمن المتروكُ !
ورُويَ مِن طريقٍ ثالث عن أبي هُريرَة :
فَقَد « أخرجهُ الطبراني في « الأوسط » وفيه عبّاد بن كثير، وهو متروكُ الحديث »! كما قال الهيثمي في « المجمع »(١٢٩/١) .
ورواهُ مِن الطَّريق نفسهِ ابنُ عديّ في « الكامل »(١٦٤٢/٤) .

ورحمَ اللَّهُ القائلَ :

إذا أنتَ لم يَنفَعكَ علمُكَ لم تجد
لِعِلمكَ مخلوقاً منَ النَّاسِ يقبلُـــه

وإن زانَكَ العلمُ الذي قَد حمَلتَهُ
وجَدتَ لهُ مَن يجتَبيهِ ويحملُـــه

وعن الحَسَن رضيَ اللَّهُ عنهُ، قال : كان طالبُ العلم يرى ذلك في سمعِهِ وبَصرهِ وتخشُّعهِ .

يعني أنَّ ثمرَةَ العلم – التي هي العمَل – تَظهَرُ عليهِ علاماتُها، وتُؤثِّر في جوارحهِ وأعضائهِ .

وقَد قال ابنُ مَسعودٍ لأصحابهِ : كونوا ينابيعَ العلمِ، مصابيحَ الحكمَةِ، سُرُجَ الليلِ، جُدَدَ القلوبِ، أحلاسَ البيوتِ، خُلقانُ الثِّياب، تُعرَفون في أهلِ السَّماء، وتَخفونَ على أهلِ الأرض .

وقال الخليلُ بن أحمد : **اجعَل تَعليمك دراسةً لك، واجعَل مناظرَة المُتعلِّم تنبيهاً لما ليس عندكَ، وأكثِر من العلمِ لتَعلَمَ، وأقلِل منهُ لتحفَظ** .

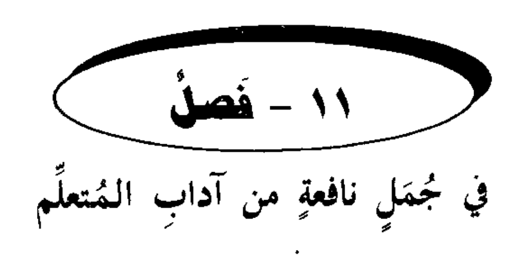
وعن عبدالرَّحمن بن مَهدي، عن محمَّد بن النَّضر الحارثي قال : أوَّلُ العلمِ الاستماع، قيل : ثمَّ ماذا ؟ قال :

الحفظُ[1]، قيل : ثمَّ ماذا ؟ قال : العَمَلُ، قيل : ثمَّ ماذا ؟ قال : النَّشر .

واللَّهُ أعلم .

○○○○○

(١) وللعلاَّمة صدِّيق حسَن خان في كتاب « الحِطَّة في ذكرِ الصِّحاح السِّتَّة » (ص:٤٧ - بتحقيقي) بحثٌ لطيفٌ في الحفظِ، وأهمِّيَّتهِ، والفرق بينه وبينَ الفهم .



١١ - فَصلٌ

في جُمَلٍ نافعةٍ من آدابِ المُتعلِّم

اعلم أَنَّهُ مَّا يلزمُ طالبَ العلمِ النَّبيهَ إكرامُ مُعلِّمهِ وأستاذهِ، وتَعظيمُهُ واحترامُهُ، لِينصَحَ في تَعليمه، ويَجِدَّ في إرشادهِ وتَفهيمهِ، فقد قال مَن صَدَقَ في المقال :

إنَّ المُعلِّمَ والطَّبيبَ كلاهمـــــا
لا يَنصحانِ إذا هما لم يُكرمـــا
فاصبِرِ لدائكَ إن جَفَوتَ طبيبَهُ
واقنَع بجهلكَ إن جَفَوتَ مُعلِّما

ولا يَنبغي لطالبِ العلم أن يُجادلَ معلِّمَه، أو يُماريه، فيُحرَمَ بذلك علماً كثيراً، بل يلزمهُ الرِّفقُ والتَّودُّدُ، وطلبُ رضاه .

قال الزُّهري : كان أبو سَلَمَة يُماري ابن عبَّاس، فَحُرِمَ بذلكَ علماً كثيراً .

وعلى المُتعلِّم الصَّبرُ، واحتمالُ الغَضَب مِن المعلِّم إن غَضبَ عند التَّعليم، ليَنالَ بذلكَ الرِّضى، فيستخرج ما عندَ مُعلِّمهِ من العلوم .

ورحمَ اللّٰهُ القائل :

اصْبِر على مُرِّ الجفا مِن مُعلِّمٍ
فإنَّ رُسوخَ العِلمِ في نَفَراتـــهِ
ومَن لم يَذُق ذُلَّ التَّعلُّم ساعَةً
تَجرَّعَ ذلَّ الجَهلِ طولَ حياتــهِ
حَياةُ الفَردِ واللّٰهِ بالعلم والتُّقى
إذا لَم يَكونا لا اعتبارَ لذاتــهِ
ومَن فاتهُ التَّعليمُ وقتَ شبابـهِ
فكبِّر عليهِ أربعاً لوَفاتـــــــهِ

وعن سعيد بن المُسيِّب أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضيَ اللّٰهُ تعالى عنهُ قال : « إنَّ مِن حقِّ العالم ألاّ تُكثرَ عليهِ بالسُّؤال، ولا تُعَنِّتَهُ في الجواب، وأن لا تُلحَّ عليهِ إذا كَسِل، ولا تأخُذ بثَوبهِ إذا نَهَضَ، ولا تُفضينَّ لهُ سرّاً، ولا تغتابنَّ عندهُ أحداً، ولا تَطلبنَّ عثرتهُ، وإن زلَّ قَبِلْتَ معذرتَه .

وعليكَ أن تُوَقِّره وتُعظِّمهُ للَّهِ ما دامَ يحفَظ أمرَ اللّه[1] ، ولا تجلس أمامهُ، وإن كانَت له حاجَةٌ سبَقْتَ القومَ إلى خدمتهِ » .

ولا بدَّ لطالبِ العلمِ من التَّواضع ، وحُسن الخُلُق، وطَرحِ الكِبَرِ، ليَنتفعَ بعلمهِ، وينفعَ غيرَهُ .

وفي هذا المعنى أنشدَ بعضهم :

إنَّ التَّواضعَ مِن خصالِ المُتَّقـــي
وبهِ التَّقيُّ إلى المعالي يَرتَقـــي
ومِن العجائبِ عُجبُ مَن هو جاهلٌ
في حالهِ أهوَ السَّعيدُ أم الشَّقـي ؟
أم كيفَ يَختمُ عُمْرَهُ أو رُوحَـــهُ
يومَ النَّوىٰ مُتَسفِّلٌ أو مُرتَقـــي
والكِبرياءُ لرَبِّنا صفَةٌ بِـــــهِ
مَخصوصَةٌ فَتَجَنَّبَنْها واتَّقـــي

وقال الحسين بن علي لابنهِ : يا بني إذا جالستَ العلماءَ، فكن على أن تَسمعَ أحرَصَ منكَ على أن تقول،

(١) وهذا شرطٌ مهمٌّ .

وتعلَّم حُسنَ الاستماع، كما تتعلَّم حُسنَ الصَّمت، ولا تقطَع على أحدٍ حديثاً وإن طال حتى يُمْسِكَ .

وقالت الحكماءُ : إذا جالستَ العُلماءَ، فكن على أن تسمعَ أحرَصَ منكَ على أن تقول .

حكى بعضهم : أنَّ الخليفة هارون الرَّشيد بعثَ ابنَهُ إلى الأصمعي، ليُعلِّمَهُ العلمَ والأدَبَ، فرآهُ يوماً يتوضَّأ، ويغسل رجلَهُ، وابنُ الخليفةِ يصبُّ الماءَ على رجلهِ، فعاتبَ الأصمعيَّ في ذلك فقال : إنَّما بعثتُهُ إليكَ لتُعلِّمهُ وتؤدِّبهُ، فلماذا لَم تَأمرهُ بأن يَصبَّ الماءَ بإحدى يدَيه، ويَغسلِ بالأُخرى رجلك ؟!

فتأمَّل لعلَّكَ تَرشدُ وتَسعَدُ .

ومِمَّا لا يَليقُ بطالبِ العلمِ اغترارُهُ بنفسهِ، وتوهُّمُهُ أنَّهُ أعلمُ من مُعلِّمهِ أو مثلهُ، فإنَّ هذا تسويلٌ منَ النَّفسِ، وخُدعَةٌ من الشيطان .

قال الفرَّاءُ : قال لي رجلٌ : ما اختلافُكَ إلى الكسائي وأنتَ مثلهُ في النَّحو ؟! فأعجَبتني نَفسي، فأتيتهُ فناظرتهُ مناظَرَةَ الأكفاءِ، فكأنَّني طائرٌ يَغرفُ بمنقارهِ من البَحر .

ولصالح بن عبدالقُدُّوس :

وإنَّ عناءً أن تُفهِّمَ جاهـــــــلاً
فيحسبُ جهلاً أنَّهُ منكَ أفهـــــمُ
متى يبلغُ البُنيانُ يوماً تمامَـــــــهُ
إذا كنتَ تَبْنيهِ وغيرُكَ يَهــدمُ ؟!
متى ينتهي عن سيِّىءٍ مَن أتى بـه
إذا لم يكُن منهُ عليهِ تنَــدُّمُ ؟!

ومن المعلومِ عندَ الفُضلاءِ أنَّهُ ليسَ كلُّ إنسانٍ قابلاً لكلِّ علمٍ، **فيَنبغي لطالِبِ العلم أن يتعلَّمَ ما يَسْهُلُ عليه، ويَرى نفسَهُ قابلةً له، وإلاّ أضاعَ عُمُرَهُ في طَلبِ ما لا سَبيلَ إليهِ** .

قال الأصمعيُّ : كنتُ أترَدَّدُ إلى الخليلِ بن أحمدَ آخُذُ عنهُ علمَ العَروض، فاستَعصى عليَّ، فلماَّ جئتهُ ذاتَ يومٍ قال لي : كيفَ تُقطِّع يا أبا سَعيدٍ ؟

إذا لَمَ تَستَطِع شيئاً فَدَعهُ
وَجاوِزهُ إلى ما تَستَطيـــعُ

... فعلمتُ مُرادَ الشيخِ، وانصرفتُ عنهُ، ولم أعُد إليهِ لأخذِ علمِ العَروضِ .

قال العُلماء : ويَنبغي لطالبِ العلم أن لا يجَلس قريباً من معلِّمهِ عندَ الدَّرس، بل ينبَغي أن يكونَ بيَنهُ وبينَهُ قَدرُ قوسٍ،

فإنَّهُ أقربُ إلى التَّعظيم[1] .

ولا يَنبغي لهُ أن يكونَ لئيماً يغتابُ مُعلِّمهُ ومَن يشاركهُ في الدَّرسِ من الطَّلبَة، ويقابلَ الحسنَةَ بالسَّيئةِ، كما شاهَدنا ذلك من كثير من الطُّلاّب، حتى حُرموا العلمَ بسببِ ذلك، **بل الواجبُ عليهِ الاعترافُ بفَضله، والدُّعاءُ له، ونَشرُ محاسنهِ، والكفُّ عن مساوئهِ، فلِمُعلِّمهِ من الفَضل عليهِ أعظمُ من فَضلِ أبيه**، كما اعتَرفَ به بَعضُ النُّجباء الأذكياء حيث يقول :

أُفَضِّلُ أُستاذي على فَضلِ والـــــدي
وإن نالَني مِن والدي المجدُ والشّـرف
فهذا مُربِّي الرُّوحِ والرُّوحُ جَوهـــــرٌ
وذاكَ مُربِّي الجسمِ والجسمُ كالصَّدَف

(١) وهذا تعظيمٌ لا دليلَ عليه، بل يردُّهُ حديثُ جبريلَ في تعليم الإسلام، ففيهِ أنَّهُ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ، حتى جَلَسَ إليهِ، « فأسندَ رُكبتَيهِ إلى رُكبتيه، وَوضعَ كفيَّهِ على فَخِذيه ... » .

رواه مسلم (٨) عن عُمَر .

ويُطالعُ – لزيادة الفائدة – كتابُ « حِليَةُ طالبِ العلم » للشيخ بكر أبو زيد .

وقال الآخَر :

إذا أفادَكَ إنسانٌ بفائـــــدَةٍ

مِنَ العلومِ فلازمْ شكرَهُ أبَدا

وقُل فلانٌ جزاهُ اللَّهُ صالحَـةً

أفادَنيها وألقِ الكِبرَ والحَسَدا

وينبغي لطالبِ العلم أن يتخلَّى عن جميع الرَّذائل، ويتحلَّ بما أمكنهُ من الفضائل، فيكون مُحسناً للخَلْق، جميلَ المُعاشرة، مُمتثلاً لقوله ﷺ لِمعاذٍ : « وخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ »[1].

ويُسلِّم على الكبير والصَّغير من المُسلمين، ويَحرصُ على

---

(١) قطعة من حديثٍ أخرجهُ أحمد (٥/١٥٣ و ١٥٨ و ١٧٧)، والترمذي (١٩٨٧)، والحاكم (١/٥٤) عن أبي ذرّ .

وفي سندهِ انقطاعٌ .

ولهُ طريقٌ أخرى يقوِّيه :

أخرجهُ أحمد في « مسندهِ »(٥/١٦٩)، وفي « الزُّهد »(٢٧)، والبيهقي في « الأسماء والصِّفات »(١٠٧) بسندٍ حَسَن .

وقد حسَّنَ الحديثَ الذَّهبيُّ، كما في « فيض القدير »(١/١٢١) .

وانظر « جامع العلوم والحكم »(١٤٧-١٤٨) .

ابتدائهم بالسَّلام، **فمِن علامَةِ النَّجابَةِ بالطُّلّاب، حُسنُ السَّمتِ والأدبُ، واحترامُ النَّاسِ عُموماً**، وقَد قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقولوا للنَّاسِ حُسناً ﴾ [البقرة: ٨٣] .

وينبغي لطالبِ العلم أن لا يَصحَبَ إلاّ مَن يُعينهُ على تَقوى اللَّه تعالى وطاعتهِ .

ويَحذَرُ كلَّ الحَذَرِ مِن مُخالطَةِ السُّفهاءِ، وأهلِ المُجونِ والوَقاحَةِ، وسيِّئي السُّمعَة والأغبياءِ والبُلداء، فإنَّ مُخالطتهُم سببُ الحِرمان، وشقاوَةُ الإنسان .

وما أحسنَ ما قيل :

لا تَصحَبِ الكَسلانَ في حالاتـهِ
كم صالحٍ بفسادِ آخَرَ يَفسُـــدُ
عَدوى البَليدِ إلى الجليدِ سريعـةٌ
كالجمرِ يُوضَعُ في الرَّمادِ فيَخمُدُ

وقال غَيرهُ :

عن المَرءِ لا تَسأل وسَل عَن قَرينهِ
فكُلُّ قَرينٍ بالمُقارنِ يَقتَـــــــدي

فإن كانَ ذا شرٍّ فجانِبْهُ سُرعَـــــةً
وإن كانَ ذا خَيرٍ فقارِنهُ تَهتَـــدي

وروى الإمامُ أبو عُمَر بن عبدالبَرّ عن ابن أبي حُسَين أنَّهُ قال : « بَلَغني أنَّ لُقمانَ الحكيم كان يقولُ : يا بُنيَّ لا تتعلَّم العلمَ لتُباهي بهِ العُلماء، وتُماري بهِ السُّفهاء، وتُرائي بهِ في المجالس، ولا تَدَع العلمَ زُهداً فيه – وفي روايةٍ : حياءً منَ النَّاس، ورَغبَةً في الجهالة –، يا بُنيَّ اختَر المجالس على عينكَ، فإذا رأيتَ قوماً يَذكرونَ اللَّه، فاجلس معهم، فإنَّكَ إنْ تكُ عالماً يَنفعْكَ علمُك، وإن تكُ جاهلاً يعلِّموك، ولعلَّ اللَّه يطَّلعُ عليهم برحمته فَتُصيبك معهم، وإذا رأيتَ قوماً لا يذكرونَ اللَّه، فلا تجلس معهم، فإنَّكَ إن تكُ عالماً لا يَنفعكَ علمكَ، وإن تكُ جاهلاً يَزيدوكَ غيّاً، ولعلَّ اللَّه يطَّلعُ عليهم بعذابٍ فيُصيبك معهم » .

ويجبُ على طالبِ العلم أن يُديمَ حَمدَ اللَّه تعالى، وشُكرَهُ على نِعَمهِ العَظيمَة، وآلائهِ الجسيمَةِ التي مِن أعظمها أن جَعَلهُ مُحبّاً للعلم، طالباً له، مَعدوداً من أهلهِ .

ولا شكَّ أنَّ هذا اصطفاءٌ من اللَّهِ تعالى، وقَد قال

ﷺ : « مَن يُرِد اللَّهُ بِهِ خَيراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين »[1]، فلذا **ينبغي لطالبِ العلم أن يتذكَّر أنَّ الدُّنيا فانيةٌ، والعمرَ قَصيرٌ، والأجلَ قريبٌ، حتى يُقدِّم من العلومِ الأهمَّ على المُهم، وأهمُّ ما يلزمهُ الفقهُ في الدِّين، والعملُ به، وما سوى ذلك، فلا يجبُ على الإنسان علمهُ .**

وأنشدَ بعضهم :

إذا ما اعتزَّ ذو علمٍ بعلـــــم
فعلمُ الفقهِ أَولى باعتـــــزازِ
فكَم طِيبٍ يَفوحُ ولا كَمِسكٍ
وكَم طَيرٍ يَطيرُ ولا كَبــــازِ

وقال في « غِذاء الألباب »[2] في شرح قول الإمام ابن عبدالقويّ :

ولا تَسأمَنَّ العلمَ واسهَر لنَيلـــــهِ
بلا ضَجَرٍ تَحمَد سُرى الليلِ في غَدِ

فَمَن ألِفَ السُّهادَ، وتَرَكَ الوِسادَ والمِهادَ، وجابَ

---

(١) رواه البخاري (١٥٢/٦)، ومسلم (١٠٣٧) .
(٢) (٥١٦/٢) .

البلادَ، وحُرِمَ الأهلَ والأولاد، نالَ منهُ المُراد .

مَن طَلَبَ وجدَّ وَجَدَ، ومَن قَرَعَ البابَ ولَجَّ وَلَجَ، ومَن أَلِفَ السآمَةَ والنَّومَ، لم يَنَل ما نالَ القَوم، فإذا رأيتَ نَفسكَ لا تَنهَضُ لنيلِ العلومِ، ولا تَدأبُ في إدراكِ المَنطوقِ منها والمَفهوم، فاعلَم أنَّكَ مِمَّن استَرذَلَهُ اللَّهُ وأبعَدَهُ، واستَحوَذَ عليهِ الشيطان وأقعَدهُ .

فعَن الحَسَن البَصري رحمه اللَّهُ تعالى أنَّهُ قال : إذا استَرذَلَ اللَّهُ عَبداً زهَّدهُ في العلم .

وقال الإمامُ أحمَدُ رضيَ اللَّهُ عنه : لا يُثبِّطُ عن طَلَبِ العلمِ إلاّ جاهلٌ .

وقال : ليسَ قومٌ خيراً من أهلِ الحديثِ .

ومِمَّا يُزيِّنُ طالبَ العلمِ كِبَرُ عَقلِهِ، والتَّودُّدُ إلى النَّاس، والاعترافُ بفَضلِ الفاضلِ، والتَّغافُلُ عن جَهلِ الجاهل .

ولَقَد أحسَنَ القائلُ :

وما عبَّرَ الإنسانُ عن فَضلِ نَفسِـــهِ
بمثلِ اعتقادِ الفَضلِ في كلِّ فاضلِ

وليسَ مِن الإنصافِ أن يَدفعَ الفَتى
يَدَ النَّقصِ عنهُ بانتِقاصِ الأفاضـــلِ

ومن كلام الإمام شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه اللَّه :
بالصَّبر واليَقين تُنالَ الإمامةُ في الدِّين[1].

وقال شيخهُ[2] :

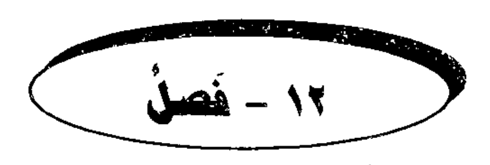
فكابِد إلى أن تَبْلُغَ النَّفسُ جهدَهــا
وكُن في اكتسابِ العلمِ طلاَّعَ أنجُدِ

ooooo

---

(1) انظر « كشف النِّقاب عن معالم سورة الأحزاب » (ص:٤٣) لشيخ الإسلام ابن تيميَّة – رحمه اللَّه – بتحقيقي .

(2) لَم يتَبيَّن لي مَن هو ؟!



١٢ - فَصلٌ

في بيانِ آفَةِ العلمِ وكراهيَة وَضعهِ عندَ مَن ليسَ مِن أهلهِ

قال الإمامُ النَّوويُّ رحمهُ اللَّه في « المقاصِد » : فطلبُ العلمِ آفتهُ صُحبَةُ الأحداثِ سنًّا وعَقلاً وديناً .

وقال السَّفاريني في « غذاء الألباب » : وحِرمانُ العلمِ يكونُ بستَّةِ أوجهٍ :

أحدها : تركُ السُّؤال .

الثَّاني : سوءُ الإنصات، وعَدمُ إلقاء السَّمع .

الثَّالث : سوءُ الفَهم .

الرَّابع : عَدمُ الحِفظ .

الخامس : عَدمُ نَشرهِ وتَعليمهِ، فَمَن خَزَنَ عِلمهُ، ولم يَنشرهُ، ابتلاهُ اللَّه بنسيانهِ جزاءً وِفاقاً .

السَّادس : عَدم العَمَل به، فإنَّ العَمَلَ به يوجبُ

تَذكُّرَهُ، وتَدبُّرَهُ، ومراعاته، والنَّظرَ فيه، فإذا أهَمَلَ العملَ به نسيَهُ .

قال بَعضُ السَّلفِ : كنَّا نَستعينُ على حِفظِ العلمِ بالعَمَلِ به .

وقال بعضهم : العلمُ يهتفُ بالعَمَل، فإن أجابهُ وإلاّ ارتحل .

فما استُدِرَّ العلمُ واستُجلِب بمثلِ العَمَلِ به .

ورَوى الإمامُ أبو عُمَر ابن عبدالبَرّ، عَن الزُّهْري أنَّهُ قال : إنَّما يُذهِبُ العلمَ النِّسيانُ، وتَركُ المذاكرَةِ .

وقال بعضهم :

إذا لم يُذاكَر ذو العلوم بعلمهِ
ولم يذَّكِر علماً نَسِي ما تَعلَّما

وعن الأعمشِ مَرفوعاً : « آفَةُ العلمِ النِّسيان، وإضاعتهُ أن يُحدَّثَ به غيرُ أهلهِ »(١).

---

(١) رواه الدَّارمي في « سننه »(١٥٠/١)، وابن عبدالبرّ في « جامعه » (١٣٠/١) عن الأعمش هكذا، مُعْضَلاً .

وهو ضَعيفٌ .

ورواهُ أبو الحُسين الأبنوسي في « الفوائد »(٢/٢٤) عن عليّ بن =

وعن أبي فَرْوَةَ أنَّ عيسى عليه السَّلام كان يقول : لا تَمنعِ الحكمَةَ أهلَها فتأثَم ، ولا تَضَعْها عندَ غيرِ أهلها فتَجهَل ، ولْتَكُن طبيباً رفيقاً يضعُ دواءَهُ حيثُ يعلمُ أنَّهُ يَنفعُ .

وللإمام الشافعيِّ رحمه اللَّه تعالى :

سأَكْتُمُ علمي عَن ذَوي الجَهلِ طاقَتي
ولا أنثرُ الدُّرَّ النَّفيسَ على الغَنَم

فإنْ يسَّرَ اللَّهُ الكريمُ بفَضلِهِ
وإلاَّ فمَخزونٌ لديَّ ومُكْتَتَم

فَمَن مَنَحَ الجُهَّالَ علماً أضاعَهُ
ومَن مَنَعَ المُستَوجبين فَقَد ظَلَم

ويُروى[1] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال : « قامَ أخي عيسى

= الحسين، قال : حدَّثنا أبو داود، عن الأعمش، قال : كان يقال : ... فذكرهُ، ولم يَرفعهُ .

أوردَ هذا الطَّريق شيخنا في « السلسلة الضَّعيفة »(١٣٠٣) ثمَّ قال : « والوقفُ أصحُّ، والمرفوعُ ضعيفٌ مُعْضَلٌ » .

(١) رواهُ العقيلي في « الضُّعفاء »(٣٤٠/٤)، والحاكم في « المستدرك » (٢٧٠/٤)، والطبراني - كما في « البداية والنهاية »(٢٥٨/٩) - .

وقَد سكتَ الحاكم عن الحديث مُقرّاً له !!

وتعقَّبهُ الذَّهبي بقوله : =

عليهِ السّلام خَطيباً في بني إسرائيل، فقال : يا بني إسرائيل لا تُعطوا الحِكمَةَ غيرَ إهلِها فتَظلموها، ولا تَمنَعوها أهلَها فتَظلموهم » .

وَقَد نظمَ هذا بعضُ الحُكماءِ فقال :

مَن مَنَعَ الحِكمَةَ من أهلهـــا
أصبحَ في النَّاسِ لهم ظالمـــا
أو وَضعَ الحكمَةَ في غَيرهـم
أصبحَ في الحُكمِ لهم غاشمـــا
لا خَيرَ في المرءِ إذا ما غَدا
لا طالبَ العلمِ ولا عالمـــا

وَلَقَد أحسنَ القائلُ في قوله :

وإذا حَمَلْتَ إلى سَفيهٍ حكمَةً
فَقَد حملتَ بضاعةً لا تنفـقُ

وقد رُويَ مرفوعاً : « واضعُ العلمِ في غيرِ أهلهِ كمقلِّدِ

= « هشام متروكٌ، ومحمَّد بن معاوية كذَّبهُ الدَّارقطني، فَبَطَلَ الحديثُ » .
وقال العُقيلي : « ليسَ لهذا الحديثِ طريقٌ يَثبُتُ » .

الخنازير اللؤلؤَ والذَّهب »[1].

ومِن آفات العلم استغناءُ الإنسان بنفسه، وثقتهُ بعلمهِ، وحَدْسُه[2] عنِ مُراجعَةِ العُلماء، والأخذِ عنهم، والاستضاءَةِ بنورِ أفكارهم .

فَلَقَد حذَّرَ العُلماء عن ذلك، وبالغوا في النَّهيِ عنه، كما روى العلاَّمَة ابنُ خلِّكان[3] في ترجمةِ الحافظ الإمام ابن عساكر قوله :

ألا علمُ الحديثِ أجلُّ علـــم
وأشرفهُ الأحاديثُ العوالــــي
وأنفعُ كلِّ نَوعٍ منه عنــــدي
وأحسنهُ الفوائدُ والأمالــــي
وإنَّكَ لن تَرى للعلم شيئـــاً
يُحَقِّقهُ كأفواهِ الرِّجــــــالِ

---

(١) حديثٌ ضعيفٌ جدّاً .

يُنظَرُ تخريجهُ في تَعليقي على جزءِ « طرق حديث : طلب العلم فريضة ... »(ص: ١٤-١٥) للسُّيوطي .

(٢) الحَدْسُ : المضيُّ على غيرِ استقامةٍ .

(٣) في « وفيَّات الأعيان »(٣/٣١٠) .

فكُن يا صاحِ ذا حِرصٍ عليه
وخُذهُ عن الرِّجالِ بلا مَـلالِ

ولا تأخذْهُ من صُحِفٍ فتَرمى
منَ التَّصحيفِ بالدَّاءِ العُضالِ

وممَّا يَقبُحُ بالمتعلِّم، ويَرفَع عنهُ نورَ العلمِ والفَضلِ والكمالِ، ويكونُ سبباً لحرمانه، وعدم انتفاعهِ ونَفعهِ بعلمهِ : إطلاقُ لسانهِ بالشتَم، والقَذفِ، والغِيبَةِ، والنَّميمةِ، وغيرِ ذلكَ من صفات الأَراذِل الذَّميمَة، وأقبحُها الحسَد، عياذاً بكَ اللَّهمَّ من ذلك، فإنَّ الحَسَدَ – كما في « غذاء الألباب »[1]– ضارٌ في الدِّين والدُّنيا .

أمَّا ضَرَرُهُ في الدِّين، فإنَّ الحاسدَ قَد سَخِطَ قضاءَ اللَّهِ تعالى، فَكَرِهَ نعمتَهُ على عبادهِ، وهذا قَذىً في بَصَرِ الإيمانِ، ويكفيهِ أنَّهُ شاركَ إبليسَ في الحَسَد، وفارَقَ الأنبياءَ في حُبِّهم الخيرَ لكلِّ أحد .

ولقَد أحسنَ القائل :

ألا قُل لِمَن كان لي حاسـداً
أتَدري على مَن أسأتَ الأدَب ؟

---

(١) (٢/٢٨٥) .

أسأتَ على اللّهِ في حُكمـــهِ

لأنَّكَ لَم تَرضَ لي ما وَهَـب

فجازاكَ ربِّي بأن زادَنـــي

وسدَّ عليكَ وُجوهَ الطَّلـب

وَقَد ذَكَرتُ أشعاراً لطيفَةً في ذمِّ الحَسَد، وأقسامِ الحَسَدَةِ في آخِرِ « شَرحِ شواهِدِ شَرحِ القَطر »[1]، وبيَّنتُ هناكَ **أنَّ الحَسَدَةَ ربَّما حَصَلَ بهم نَفعٌ للمحسودِ مع ضرَرهِم لأنفسهم** .

وأمَّا ضَرَرهُ في الدُّنيا، فإنَّ الحاسدَ يتألَّم، ولا يزالُ في كَمَد .

وأنشدوا :

دَعِ الحَسودَ وما يَلقاهُ مِن كَمَدٍ

كفاكَ منهُ لَهيبُ النَّارِ في كَبـدهِ

إن لُمتَ ذا حَسَدٍ نفَّستَ كُربتَهُ

وإن سَكَتَّ فَقَد عذَّبتهُ بيـــدهِ

قال الأصمعيُّ : سمعتُ أعرابيَّاً يقولُ : ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلومٍ من الحاسد، حُزنٌ لازمٌ، ونفسٌ دائمٌ، وعقلٌ

(١) واسمه « سُبُل الهُدى »، وهو مطبوعٌ .

هائمٌ، وحَسرَةٌ لا تَنقَضي .

وفي « سنَن أبي داود »[1] عن أبي هُريرَة رضيَ اللّهُ

---

(١) (برقم : ٤٩٠٣) .

ورواهُ عبد بن حميد (رقم : ١٤٣٠)، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق »(٧٦١)، والبخاري في « التّاريخ الكبير »(٢٧٢/١/١) .

وفيه راوٍ مجهولٌ .

وله شاهدٌ :

رواهُ ابن أبي شيبة (٩٣/٩)؛ وأبو الشيخ في « التّوبيخ »(٥٩)، وابن عبدالبرّ في « التّمهيد »(١٢٤/٦)، والخطيب في « الكفاية »(٣٤٥) .

من طَريقِ الأعمش، عن يزيد الرَّقَاشي، عن أنس .

ويزيد : فيه ضَعفٌ .

وله طريقٌ آخَر عن أنَس :

يرويه الخطيب في « تاريخه »(٢٢٧/٢) مِن طريق أبي هلال عن قَتادَة عن أنَس .

وأبو هلالٍ صَدوقٌ، لكن في حديثِهِ عن قتادَة لينٌ .

وحسَّنهُ العراقي في « تخريج الأحياء »(٤٥/١) .

وهو كما قال - بشواهده - .

ولهُ شاهدٌ آخَرُ :

يَرويهِ أبو داود (٤٩٠٤) وأبو يعلى (٣٦٩٤) مِن طريقِ سعيد بن أبي العمياء، عن سهل بن أبي أُمامة، عن أنَس مرفوعاً، وفيه : « إنَّ الحَسَدَ يُطفِىءُ نورَ الحسنات » .

وهوَ حَسَنٌ لذاتِهِ - إن شاءَ اللّه - . =

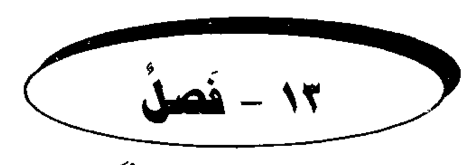
عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال : « إيَّاكُم والحَسَد، فإنَّ الحَسَد يأكُلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارُ الحَطَب »، أو قال : « ... العُشب » .

قال في « غذاء الألباب »[1] :

فباللَّهِ عليكَ اعرِفْ قَدرَ الدُّنيا، واعلم أنَّها هُمومٌ متراكمةٌ، وغمومٌ متلاطمةٌ، وحسابٌ وعذابٌ، وهي خِرَقٌ وترابٌ، وصُوَرٌ وخَراب، **فَرَحِمَ اللَّهُ امرءاً عَرَفَ نَفسهُ، وعَرَفَ الدُّنيا، وعملَ على مُقتَضى كلٍّ بحَسبِهِ**، واللَّهُ سبحانهُ وتعالى المسؤول أن يقذفَ في قلوبنا منَ النُّور ما يزولُ به الدَّيجور، ونشاهدُ حقائقَ الأمورِ على حَسَبِ ما يُرضي الغَفور، إنَّهُ جوادٌ كريمٌ، رؤوفٌ رحيمٌ .

= سعيد : وثَّقهُ ابن حبَّان، وروَى عنهُ جماعةٌ .
فالحديث صحيحٌ لغيرهِ .

(١) (٢/٢٨٥-٢٨٦) .
وقد قال قبلَ ذلك بسطر واحد :
« **ثمَّ اعلَم أنَّكَ إنَّما تحسدُ إخوانَكَ على الدُّنيا وحُطامها، وأمَّا قوَّامُ الليلِ وصُوَّامُ النَّهارِ؛ فلا أراكَ تَحسُدُهم** ... » .



١٣ - فَصلٌ

في بيانِ الإنصافِ في العلمِ وأَنَّهُ يُزيِّنُ العالمَ

قال أبو عُمَر ابن عبدالبَرّ : **مِن بركةِ العلمِ وآدابه، الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصِف لم يَفهَم ولم يُفهِم** .

وقال بعضُ العُلماء : ليسَ معي منَ العلمِ إلاّ أنِّي أعلمُ أنِّي لستُ أعلم .

أقول : يُعَدُّ مثلُ هذا الكلام فَضيلَةً لقائلهِ إذا كانَ عالماً هاضماً لنَفسهِ، عارفاً نَقصَهُ بالنِّسبَةِ إلى مَن هوَ أكثرُ منهُ علماً، وأمَّا إن كانَ لا عِلمَ عنده، وقال ذلك مُخبراً عن نفسه، ومُعترفاً بنقصهِ، فيكونُ جاهلاً بسيطاً يجبُ عليه التَّعلُّم !

وقال محمودُ الورَّاق :

أَتَمُّ النَّاسِ أعرفهُم بنقصهِ
وأقمعهُم لشَهوتِهِ وحِرصهِ

وعن عُمَر بن الخطَّاب أَنَّهُ قال : لا تَزيدوا في مُهورِ

النِّساء على أربعين أوقيَّةً، ولو كانَت بنتَ ذي العصمَةِ - يعني يَزيدَ بن الحُسين الحارثي - فمن زادَ ألقيتُ زيادتَهُ في بيتِ المال، فقامت امرأةٌ من صفِّ النِّساء طويلةٌ فيها فَطَسٌ، فقالت : ما ذلك لك، قال : وَلِمَ ؟ قالت : لأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وآتيتُم إحداهُنَّ قِنطاراً فَلا تَأخُذوا مِنهُ شيئاً ﴾[1]، فقال عمر : امرأةٌ أصابَت، ورجلٌ أخطأ[2].

وهذا في غايَةِ الإنصاف من أميرِ المؤمنين معَ ما أعطاهُ اللَّهُ من الخلافَةِ والمهابَةِ، ومحبَّةِ الرَّعيَّة، وكمالِ الشرَف والسُّؤدد، وكثرةِ الفتوحات، وكونه مُلهماً مُحدِّثاً حيثُ اعترَفَ بالخطأ، ورَجَعَ عنه[3]، لتنبيهِ امرأةٍ، فَرَضِيَ اللَّهُ تعالى عنهُ وعن العُلماء العاملين المُنصفين .

قال أبو عُمَر : وكانَ مالكُ بن أنَس يقول : **ما في زماننا شيءٌ أقلَّ من الإنصاف** .

---

(١) النِّساء : ٢٠ .

(٢) رواه سعيد بن منصور في « سننه » (١٦٦/٣/١)، والبيهقي (٢٣٣/٧) بسندٍ منقطع، وفيه مُجالِدٌ الهَمْدانيُّ؛ وهو ضعيفٌ .

ولهُ طُرُقٌ أخرى ضعيفَةٌ ومُنكرةٌ، كما تراهُ في « إرواء الغليل » (٣٤٨/٦) لشيخنا الألباني .

(٣) وفي كتابي « قَبول الحقِّ » أمثلةٌ عدَّةٌ، وصورٌ شتَّى .

وعن عبدالرَّحمن بن القاسم قال : قلتُ لمالك : ما أعلمُ أحداً أعلمَ بالبُيوعِ من أهلِ مصرَ ! فقال لهُ مالكٌ : وَبِمَ ذلك ؟ قال : بك، قال : أنا لا أعرفُ البيوعَ، فكيفَ يَعرِفونَها بي ؟!

وقال خالدُ بن يَزيد بن مُعاويَة : عُنيتُ بجمعِ الكُتُب، فما أنا من العُلماء، ولا من الجهَّال[1].

وقال يَزيدُ بن عبدالملك :

إذا تَحدَّثتُ في مجلـــــسٍ
تناهى حديثي إلى ما عَلِمتُ

ولَم أَعْدُ عِلمي إلى غيـــرهِ
وكان إذا ما تَناهى سكَـتُّ

وعن عبداللَّه بن وَهب قال : سمعتُ مالكاً يقول : المراءُ يُقسِّي القَلب، ويُورثُ الضِّغن .

وإنَّما قال مالكٌ رحمه اللَّه ذلك، **لأنَّ المقصودَ من العلم، هو أن يكونَ سبباً موصلاً إلى مرضاةِ اللَّهِ تعالى، ولم**

---

(١) فجمعُ الكُتبِ إذا غَدا غايَةً في نَفسهِ أضاعَ الثَّمرَةَ التي من أجلها تُجمعُ الكُتُب؛ ألاَ وهي العلمُ والتَّعلُّم، وبالتَّالي العَملُ والدَّعوة .

يكُن من سيرةِ السَّلفِ الصَّالح الجدالُ والمِراءُ، بل قَصدهُم ظهورُ الحقِّ، كما قال الوالدُ عليهِ الرَّحمةُ في بعضِ رسائلهِ، وقَد أفتى بمسألةٍ، فَخطَّأهُ بعضُ مشايخنا، وكتبَ إلى الوالدِ بذلك، فأجابهُ برسالةٍ، قال في أوَّلها : « ... وهذا أخي ليسَ من الدِّين – يعني الاعتراضَ من غيرِ تحقيقٍ – ولا من سُنَّة عباد اللّه الصَّالحين، لا سيَّما الإخوان المُتناصحين، فلقد كان منهم مَن يقول : أفرَحُ إذا أصابَ خَصمي، وأحزَنُ إذا أخطأ، إذ لم يكُن لهم قَصدٌ إلاّ ظهورَ الحقّ، ولم يبالوا مَعَ من كان » .

ثمَّ ذكرَ رحمهُ اللّه تعالى الجوابَ في قريبٍ من عشرينَ صفحةً، تبيَّنَ فيها خطأُ شيخنا رحمه اللّهُ بشهادَةِ العُلماء الأعلام .

وممَّا يليقُ ذكرهُ في هذا المقام، أنَّهُ وقَعَت لي عبارةٌ في « الكواكب »[1] وهي قولنا : « فهو تعالى مُستوٍ على عَرشهِ على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أرادهُ، استواءً مُنزَّهاً عن المُماسَّة والتَّمكُّن والحلول » .

---

(١) واسمهُ « الكواكبُ الدُّرِّيَّة على الدُّرَّة المُضيَّة » وهو شرحٌ للمصنِّف على « الدُّرَّة ... » للسَّفَّاريني، وهو مطبوعٌ .

فَبَلَغني عن بعضِ الإخوانِ أنَّهُ قال : إنَّ قوله : مُنزَّهاً عن المُماسَّة ، لم يَرِد عن السَّلَف ! ! !

وما كدتُ أُصدِّق لظهورِ المسألة ، وكونها من البديهيَّات ، حتى تواتَرَ النَّقلُ لديَّ من الطَّلبَة ، فأحببتُ أن أذكرَ مُستَندي هُنا على وجهِ الاختصار ، تَنبيهاً للغافل ، وخَوفاً من استطالةِ الجاهل ، وإلاّ فمحلُّ بَسطِ الكلامِ على هذه المسألة في كتابنا الذي ألَّفناه في « الرَّدِّ على الجهميَّة » عندما نعودُ إلى إتمامهِ إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رضيَ اللَّهُ عنهُ في : « التَّدمريَّة »[1] : « وَقَد عُلِمَ أنَّهُ ما ثمَّ موجودٌ إلاّ الخالقُ والمخلوق ، والخالقُ مُباينٌ للمخلوقِ سبحانهُ وتعالى ، ليس في مخلوقاتهِ شيءٌ من ذاتهِ ، ولا في ذاتهِ شيءٌ من مخلوقاته » .

فهذا الكلامُ صريحٌ في عدمِ مُماسَّة الباري تعالى لشيءٍ من مخلوقاته ، إذ المُباينُ غيرُ مُماسٍّ ، فالمُباينَة والمُماسَّةُ نَقيضان لا يجتمعان ، ولا يرتفعان .

وقَد خطَّأ العُقلاء – ومنهم شيخ الإسلام وابنُ القيِّم – مَن يُثبت شيئاً ، ويَنفي نَظيره ، فالذي يعترفُ بالمُباينة يلزمهُ عَقلاً

(١) وهي مِن أجوَدِ رسائلهِ – رحمه اللَّه – في تقرير أصول العقيدة .

الاعتراف بعدم المماسّة، وإلاّ كابَرَ المعقولَ، وخالفَ المنقولَ، وهذا في غايَةِ الغباوَةِ والبلاهَةِ عندَ العُقلاء .

وقَد صرَّحَ بذلك الإمامُ أحمدُ في « ردّه على الجهميَّة »[1]، حيثُ قال : « فلماَّ ظهَرَت الحجَّةُ على الجهميِّ بما ادَّعى على اللَّهِ عزَّ وجلَّ أنَّهُ مع خَلقهِ في كلِّ شيءٍ، قال : هو غيرُ مُماسٍّ للشيء، ولا مُباينٍ منه، فقلنا للجهميِّ : إذا كانَ غيرَ مُباينٍ، أليسَ هو مُماسَّاً ؟ قال : لا، فقلنا : فكيفَ يكونُ في كلِّ شيءٍ غيرَ مُماسٍّ للشيء ؟ فلم يُحسِن الجوابَ، فقال : بلا كيفٍ، **فخدع الجهَّالَ بهذه الكلمةِ وموَّه عليهم**[2] .

والشاهدُ من هذا قوله : « إذا كانَ غيرَ مُباينٍ أليسَ هو مُماسَّاً ؟ » .

تقولُ أهلِ السنَّة : بائنٌ من مخلوقاته، معناهُ : غيرُ مُماسٍّ لها .

---

(١) (ص: ٩٧ - ضمن « عقائد السَّلف »)

(٢) وهكذا أفراخُ الجهميّة المعاصرون : ليسَ في جعابِهم إلاّ الخداعُ والتّمويه، والكذبُ والتّسفيه ! وهُم - مع هذا كُلِّه - مكشوفونَ عندَ كلِّ عارفٍ ونَبيه ! !

وأمَّا من لم يعترف بالْمباينة، فقد صرَّحَ بكُفرهِ إمامُ أئمَّةُ أهلِ السُّنَّةِ .

وقال ابنُ القيِّم : في « الجيوش الإسلاميَّة »[1] لَّما ذكرَ قولَ الإمام أحمد :

« وقال في موضع آخَر : وإنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ على عرشهِ فوقَ السَّماءِ السَّابعة، يعلمُ ما تحتَ الأرضِ السُّفلى، وإنَّهُ غيرُ مُماسٍّ لشيءٍ من خلقه، وهو تباركَ وتعالى بائنٌ من خلقه، وخلقهُ بائنونَ منه » .

فانظُر إلى قولِ الإمام أحمَد : « وإنَّهُ غيرُ مُماسٍّ لشيء من خَلقه » ! وهل يقولُ مسلمٌ : إنَّ العَرش ليسَ من جملةِ خَلقه، وإنَّ اللَّه ليسَ مُبايناً له، حاشا وكلاَّ .

قال شيخُ الإسلام رضيَ اللَّهُ عنه في « التَّدمريَّة » بعد كلامٍ :

« وإن أرادَ أنَّهُ مُنحازٌ على المخلوقات، أي : مُباينٌ لها، مُنفصِلٌ عنها، ليسَ حالاًّ فيها، فهو سبحانهُ وتعالى كما قال أئمَّةُ أهلِ السُّنَّة : فوقَ سمواتهِ على عرشهِ، بائنٌ من خَلقهِ »، فهذا صريحٌ في أنَّهُ سبحانهُ وتعالى منفصلٌ عن مخلوقاته،

---

(١) (ص : ٨٠) .

ليسَ مُماسًّا لشيءٍ منها، ومن جُملتها العَرش .

وقال رحمهُ اللّه : « فأمَّا عُلُوُّهُ[1] ومُباينتهُ للمخلوقات، فيُعلَمُ بالعَقلِ الموافقِ للسَّمع، وأمَّا الاستواءُ على العَرشِ؛ فطريقُ العلمِ به هو السَّمعُ »[2].

ونقلَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رضيَ اللّهُ عنه في « شرحهِ لحديثِ النُّزول » عن شيخ الإسلام الأنصاري[3]، صاحب « منازل السَّائرين » الذي شرحَهُ الإمامُ ابنُ القيِّم في « مدارج السَّالكين » – وهو مِن أكثرِ أهل السُّنَّة ردًّا على النُّفاة – ما نَصُّهُ :

---

(١) يُراجع كتاب « العُلُوّ للعليِّ **العظيم** » للإمام الذَّهبيِّ، ففيهِ نفعٌ كبيرٌ .

(٢) مِن تَعليق المصنِّف في حاشية « الأصل » ما نصُّهُ :

« تنبيهٌ : لو عَرَفَ المعترضُ مسألة الخلافِ بيننا وبينَ الجهميَّة؛ لما اعترضَ :

فالجهميَّة الحلوليَّة قالوا : هو تعالى في كُلِّ مكانٍ .

والجهميَّة النُّفاة قالوا : لا داخِلَ العالمِ ولا خارجه .

وأهلُ السُّنَّة قالوا : هو على عرشهِ، بائنٌ مِن جميعِ مخلوقاته .

(٣) هو أبو إسماعيل، عبدُاللّه بن محمَّد بن عليّ الهرويّ، وَصَفَهُ الذَّهبي في « السِّيَر »(١٨/٥٠٣) بقوله : « الإمامُ، القُدوةُ، الحافظُ الكبير » .

وفي كتابهِ هذا هَفَواتٌ، نبَّهَ على (بعضها) ابنُ القيِّم رحمه اللّه .

« هو على عرشهِ بإخبارهِ لنفسهِ، فالعَرشُ حدُّ خَلقهِ الأعلى، وهو غيرُ محدودٍ بعرشهِ، والعرشُ محتاجٌ إلى مكانٍ، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ غيرُ مُحتاجٍ إليهِ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ الرَّحمن على العَرشِ استَوى ﴾ [طه:٥]، الرَّحمن : اسمٌ، والاستواءُ : نَعتهُ مُتَّصلٌ بذاته، والعَرشُ : خَلقُه منفصلٌ عن صفاتهِ، ليسَ بمُضطرٍّ إلى مكانٍ يَسَعُهُ، ولا حاملٍ يحملهُ » .

فهذه نصوصُ أهلِ العلمِ – كما رأيتَ – صريحَةٌ وظاهرَةٌ في نَفي المُماسَّة لشيءٍ من المخلوقات، والعَرشُ منها[1]، ومَعَ هذا فإنِّي أطلبُ الدَّليلَ ممَّن خالفَني .

قال سبحانهُ وتعالى : ﴿ قُل هاتوا بُرهانَكُم إن كُنتُم صادقين ﴾ [البقرة:١١١] **وليس لأحدٍ أن يُثبتَ شيئاً أو يَنفيَهُ**

---

(١) مِن تَعليق المصنِّف على « الأصل » ما نصُّه :

« صرَّحَ الشيخُ عبدُالقادر الجيلاني في « الغُنية » والآلوسيّ في « جلاء العَينَين »، وصدِّيق [حَسَن خان] في « الانتقاد الرَّجيح » بنفي المُماسَّة .

وذَكَرَ في « لوائح الأنوار » و « الغُنية » أنَّ القَولَ بالمُماسَّة هو قولُ المُجسِّمة .

ونَقَلَ في « جلاء العَينَين » عن ابن الجوزيّ أنَّهُ قال في أُناسٍ يُجيزونَ المُماسَّة : « عليهم اللعنة، ليسوا بمُسلمين » .

إلاّ بدليل، كما قاله شيخُ الإسلامِ وغيرهُ، ومَن حَفِظَ حُجَّةٌ على من لم يَحفَظ، والمُصادَمةُ في النَّقلِ غيرُ جائزةٍ .

قال سبحانهُ وتعالى : ﴿ وإذْ لَم يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقولونَ هٰذا إفكٌ قَديمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبوا بما لم يُحيطوا بِعلمهِ ﴾ [يونس: ٣٩] .

والمناظرة في العلم لتَحقيقِ الحقِّ هي سيرَةُ الفُضلاء، وكلٌّ يتكلَّم بما رَزَقَهُ اللَّهُ تعالى من العلمِ والفَهم .

وقَد قال بعضُ الفُضلاء : لم أطلُبَ العلمَ لأَبلغَ أقصاه، ولكن لأعلم ما لا يَسَعني جهلهُ .

وقال الشاعر :

إذا ما انتَهىٰ علمي تناهَيتُ عندَهُ
أطالَ فأُملي أم تناهى فأقصُــــرا
ويُخبِرُني عن غائبِ المرءِ فِعلُـــــهُ
كفى الفعلُ عماَّ غيَّب المرءُ مُخبِــرا

قال أبو عُمَر : وكان يقال : إذا علَّمتَ العاقلَ علماً حَمَدَك، **وإن علَّمتَ الجاهلَ ذمَّكَ ومَقَتَكَ**، وما تعلَّمَ مُستَحيٍ ولا مُتكبِّرٌ قَطُّ .

وقال الحَسَن : العاملُ على غيرِ علمٍ كالسَّالكِ على غيرِ طريقٍ، والعاملُ على غيرِ علمٍ، ما يُفسدُ أكثرُ ممَّا يُصلح، فاطلبوا العلمَ طَلَباً لا يضرُّ بالعبادةِ، واطلبوا العبادَةَ طلباً لا يضرُّ بالعلم، فإنَّ قوماً طَلبوا العبادَةَ وتَركوا العلمَ حتَّى خَرجوا بأسيافهم على أُمَّة محمد ﷺ[1]، ولو طَلَبوا العلمَ لم يدلَّهم على ما فَعَلوا .

وعنهُ أيضاً قال : إنَّ مِن أخلاقِ المؤمن قوَّةً في دين، وحَزماً في لينٍ، وإيماناً في يقين، وحِرصاً على علمٍ، وشفَقَةً في مِقَةٍ[2]، وقَصداً في عبادةٍ، ورحمَةً للمَجهودِ، وإعطاءً للسَّائل، **لا يَحيفُ على مَن يُبغض، ولا يأثم فيمن يُحبّ**، في الزَّلازل وَقورٌ، وفي الرَّخاءِ شكورٌ، قانعٌ بالذي له، ينطقُ ليَفهم، ويسكُت ليَسلَمَ، **ويُقِرُّ بالحقِّ قبلَ أن يَشهَد عليه** .

قلتُ : فما أحسَنَ هذا الكلامَ، وأصدَقَهُ، **وجديرٌ بمن نَصَحَ نَفسهُ، وخالفَ شيطانَهُ وهواهُ، أن يحملَ نَفسَهُ على**

---

(١) ما أشبهَ الأمسَ باليَوم !

فجماعاتُ الغُلُوِّ المُدَّعيَةُ للوَلاءِ والبراءِ والجهادِ (!) تَفعلُ أكثَرَ مِن هذا !! فلا قوَّةَ إلاّ باللّه .

(٢) بمعنى الصِّيانةِ والنُّصحِ .

الاتِّصافِ به، ويُجاهدها في سبيلِ الحقِّ ليفوزَ بالسَّعادَةِ دُنيا وأُخرى .

وقَد أشارَ إليَّ بَعضُ أصحابِي الأذكياء أن أذكُرَ هذه المسألةَ هنا، لعلمهِ بما تَؤولُ إليه الشُّبَهُ، ولَبْسِ الحقِّ بالباطِلِ مِمَّا لا تُحمَدُ عاقبتهُ، فامتَثَلتُ إشارَتهُ .

وأمَّا أنا فإنِّي أحتَقِرُ كلَّ كلامٍ صدَرَ عن سوءِ نيَّةٍ، وأغراضٍ رَديَّةٍ .

وَلَقد أحسَنَ القائلُ :

ومَهما تَكُن عِندَ امرِىءٍ مِن خليقَةٍ
وإن خَالها تَخفى على النَّاسِ تُعلَـــمِ

○○○○○

١٤ - فَصلٌ

في فوائدَ مُهمَّةٍ وحِكَم مُفيدةٍ حقيقٌ بطالبِ العلمِ فَهمُها

اعلم أنَّ من الآدابِ التي يَنبَغي لطالبِ العلم فَهمُها، والعَمَلُ بها، ما أرشدَ إليهِ الأئمَّةُ الفُضلاء، الذين أفنَوا أعمارهم في طَلَبِ الفضائلِ والأعمالِ الصَّالحةِ، كالإمامِ ابنِ حَزمٍ، فقد قال رحمهُ اللَّه تعالى في كتاب « مُداواةِ النُّفوس »[1]:

« إذا حَضَرتَ مجلسَ العلم، فلا يَكُن حضورُكَ إلاّ حضورَ مُستَفيدٍ، مُستَزيدٍ علماً وأجراً، لا حُضورَ مُستَغنٍ بما عندكَ، **طالباً عَثرَةً تُشنِّعها، أو غَريبةً تُشيِّعها**، فهذه أفعالُ الأراذلِ الذين لا يُفلحونَ في العلمِ أبداً »..

(١) (ص: ٤١١ - ضمن « مجموع رسائل ابن حزم »).
وقد نقلتُ هذه الكلمة في أواخرِ كتابي « عَودة إلى السُّنَّة » فراجعهُ.

قال : « وإيَّاكَ أن تُراجعَ مراجعةَ العالِم، وإذا وَرَدَ عليكَ خطابٌ بلسانٍ، أو هجَمتَ على كلامٍ في كتابٍ، فإيَّاكَ أن تُقابلهُ مُقابلةَ المُغاضبَة الباعثَةِ على المُغالبَةِ، قبلَ أن تَتبيَّنَ بُطلانَهُ ببرهانٍ قاطعٍ » .

قلتُ : وهذا سببٌ – والعياذُ باللَّه – لعَدمِ التَّوفيق، كما قال الإمامُ ابنُ القيِّم في « النُّونيَّة »[1] :

إنَّ البِدارَ بِرَدِّ شيءٍ لم تُحط

علماً به سببٌ إلى الحِرمــانِ

قال ابنُ حَزمٍ : فَرضٌ على النَّاسِ تعلُّمُ الخير والعَمَلُ بهِ؛ فَمَن جَمَعَ الأمرين؛ استَوفى الفضلين معاً، ومَن عَلِمَهُ، ولم يعمل به، فَقَد أحسنَ في التَّعليم، وأساءَ في تَركِ العَملِ بهِ، فَخَلَطَ عَملاً صالحاً، وآخَرَ سيِّئاً، وهو خيرٌ مِن آخرَ لم يعلمهُ ولم يعمل به، وهذا الذي لا خيرَ فيه أمثلُ حالاً، وأقلُّ ذمَّاً مِن آخَرَ يَنهى عن تعلُّم الخَيرِ، ويَصُدُّ عنه .

قلتُ : والمُتَّصِفون بصفَةِ هذا القسمِ الأخير سَّماهم

---

(١) وهي قصيدةٌ مِن أعظمِ نَظمِ ابنِ القيِّم رحمهُ اللَّه، لِما حَوَتهُ مِن فوائدَ علميَّةٍ عقائديَّةٍ فذَّةٍ .

الإمامُ ابن القيِّم في « مِفتاح دار السَّعادة »[1] نُوَّابَ إبليسَ في الأرضِ، وهُم الذين يُثبِّطونَ النَّاسَ عن طَلَبِ العلمِ[2]، والتَّفقُّه في الدِّين، فهؤلاء أضَرُّ عليهم من شياطين الجن، فإنَّهم يَحُولونَ بينَ القلوبِ، وبينَ هُدى اللَّهِ وطريقهِ .

قال بعضُ العُلماء : **ويَنبغي لطالبِ العلم أن لا يُنازِعَ أحداً، ولا يُخاصِمَه، لأنَّهُ يُضيع أوقاته**، وأنشدَ :

ولا تَجْزِ إنساناً عل سوءِ فعلهِ

سَيَكفيهِ ما فيه وما هُو فاعلهُ[3]

---

(١) وَقَد انتَهيتُ من تَحقيقهِ بحمدِ اللَّه، وَقَد جاءَ في مجلَّدين كبيرين، وهو الآن يُطبَع .

(٢) وتَثبيطاتُهم النَّاسَ عن العلمِ والعُلماءِ تحملُ صُوَراً عدَّةً تختلفُ باختلافِ الزَّمانِ واختلافِ المكانِ !

فاليومَ : عُلماؤنا عندَ هؤلاء المُثبِّطين عُملاء ! وعلمهُم في النِّفاس بدلاً مِن النَّاس !!!

... هكذا يقولون – وغيرهُ كثيرٌ – تَنفيراً، وتَثبيطاً، وإبعاداً للشبابِ والأُمَّةِ عنهم !

ولكن ﴿ إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرصَاد ﴾ .

(٣) وقَد جرَّبنا ذلك – وللَّه الحمد – عَمليّاً، مَعَ أُناسٍ لَدودينَ في الخصومةِ، لَجوجين بالباطلِ، يقولونَ ما لا يفعلون ! ويُظهرونَ خلافَ ما يُبطنون ! يُشكِّكونَ بالسُّنَّةِ ودعاتها، ويَطعنونَ بالحديث وأهلهِ، ويَلُفُّهم =

قيلَ : مَن أرادَ أن يُرغِمَ أنفَ عَدوِّهِ، فَلْيَجِدَّ في كسبِ الفَضائل، واجتنابِ الرَّذائل .

ولهذا قال الشاعر :

إذا شئتَ أن تَلقى عَدوَّكَ راغماً
وتَقتُلَهُ غمَّاً وتَحرقَهُ همَّـــــاً

فَرُم للعُلى وازْدَد من العلمِ إنَّهُ
مَن ازْدادَ علماً زادَ حاسِدَهُ غمَّاً

وقال النَّاصحونَ منَ العُلماء العاملين : عَليكَ أن تَشتغِلَ بمصالحِ نَفسِكَ، لا بِقَهرِ عَدوِّكَ، فإذا قُمتَ بمصالحِ نَفسِكَ، تضمَّن ذلكَ قَهرَ عُدوِّك، **وإيَّاكَ والمُعاداة، فإنَّها تَفضَحُكَ، وتُضيِّع أوقاتكَ**، وعليكَ بالتَّحمُّل لا سيَّما من

= - مع ذلكَ كلِّه - ضبابُ الجهلِ ! .

فلمَّا رأينا ذلك منهم، وَكَلْنا أمرهم إلى اللّه، وتذكَّرنا قَولَ ربِّنا سبحانهُ: ﴿ فَأمَّا الزَّبدُ فيَذهَبُ جُفاءً وأمَّا ما يَنفعُ النَّاسَ فيَمكُثُ في الأرضِ ﴾، وقوله عزَّ شأنهُ : ﴿ إنَّ ربَّكَ لَبِالْمِرصاد ﴾؛ فكانَ - بحمد اللّه - أن كفانا اللّهُ شرَّهم، وأبعَدَ عنَّا ضرُّهم .

ونحنُ واثقونَ - أيضاً - أنَّ إخوانَنا مِن طلاَّبِ العلمِ الصَّافِينَ المُنصفين سيَكتشفونَ حقيقةَ هؤلاءِ، وسيَعرفون مقاصدهم الخبيثة .

﴿ وَسَيَعلَمُ الَّذينَ ظَلَموا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبون ﴾ .

السُّفهاء، **وإيَّاكَ أن تظنَّ شرَّاً بالمُؤمنين، فإنَّهُ مَنشأُ العَداوَة**، ولا يحلُّ ذلك .

قال عُمَر رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ : ولا تَظُنَّ بكلمةٍ خَرَجَت من أخيكَ شرَّاً تجد لها في الخيرِ محملاً .

وإنَّما ينشأُ سوءُ الظَّنِّ من خُبثِ النيَّة، وسوءِ السَّريرةِ؛ كما قال أبو الطيِّب :

إذا ساءَ فعلُ المَرءِ ساءَت ظُنونهُ
وَصدَّقَ ما يَعتادُهُ مِن تَوهُّـــــمِ
وعادَى مُحبِّيهِ بِقَولِ عُداتـــــهِ
وأصبحَ في ليلٍ منَ الشكِّ مُظلمِ

وقال الآخَر :

تَنَحَّ عن القَبيحِ وَلا تَـــرِدْهُ
ومَن أولَيتَهُ حُسناً فَـــزِدهُ
ستُكفى مِن عَدوِّكَ كُلَّ كَيـدٍ
إذا كادَ العَدوُّ فلا تَكِـــدهُ

وقال غيرُه :

ذُو العَقلِ لا يَسلَمُ من جاهِلٍ
يَسومهُ ظُلماً وإعناتـــــا

فَلْيَختَرِ السِّلْمَ على حَربِــــــه

وليَلزَمِ الإنصاتَ إن صاتــــا

ولا بدَّ لطالبِ العلمِ من المُواظبةِ على الدَّرسِ والتَّكرار في أوَّلِ الليلِ وآخرِهِ، ولهذا قيلَ : من أسهَرَ نَفسهُ بالليلِ، فقَد فَرِحَ قلبهُ بالنَّهار .

ويَنبغي للطَّالبِ أن يَغتنِمَ أيَّامَ الحَداثَة، وعُنفوانَ الشباب، كما قيل :

بِقَدرِ الكَدِّ تُعطى ما تَــرومُ

فَمَن رامَ العُلى ليلاً يَقومُ

وأيَّامَ الحَداثَةِ[1] فَاغتَنِمهـــا

ألاَ إنَّ الحَداثَةَ لا تَــدومُ

ومِمَّا يَجْمُلُ بطالبِ العلمِ الهمَّةُ العاليَةُ في التَّحصيلِ، وعَدمُ الانقطاعِ عن القراءةِ، **فإنَّ المرءَ يطيرُ بهمَّتهِ، كالطَّيرِ يطيرُ بجناحيهِ** .

وعليهِ الاستقامَةُ والصَّبرُ، والثَّباتُ والاجتهادُ، فسيأتيه يومٌ يحمدُ ما مَضى من اجتهاده .

(١) إنَّها حداثَةُ السِّنِّ والشبابِ، وليست حداثَةَ العلمانيِّين الحاقدين ! فاحذَرْها !!

وليَحذَر الكَسَلَ والفتورَ والمَلَلَ، فمِن ذلك يكونُ النُّقصانُ .

وما أحسنَ ما قيلَ :

لكلٍّ إلى شأوِ العُلا حَرَكـاتُ
ولكنْ قليلٌ في الرِّجالِ ثَباتُ

قال العُلماء : ولا بدَّ لطالبِ العلم من المُذاكرَةِ والمُناظرةِ، والمُطارحَةِ، فيَنبغي أن يكونَ بالإنصافِ، والتَّأنِّي والتَّأمُّل، ويحترِز عن الغَضَبِ والشغَبِ، **فإنَّ المُناظَرة والمُذاكرَةَ مُشاورَةٌ، والمُشاوَرةُ إنَّما تكونُ لاستخراجِ الصَّواب، وذلك إنَّما يحصُلُ بالتَّأمُّل والإنصاف، ولا يحصُل بالشغَبِ والغَضَبِ .**

وقَد كانَ بعضُ العلماءِ المُنصفين إذا توجَّهَ عليهِ الإشكالُ، ولم يَحضُرهُ الجوابُ، يقول : ما ألزَمْتَهُ لازمٌ، وأنا فيهِ ناظرٌ[1]، لقوله سبحانهُ وتعالى : ﴿ وَفَوقَ كلِّ ذي علمٍ عَليمٍ ﴾ [يوسف: ٧٦] .

---

(١) أي : متوقِّفٌ ومتأمِّلٌ، وفي رسالتي : « القول الأثري في فَضل : لا أدري » مباحثُ حافلةٌ في تَقريرِ إنصاف العُلماء في ذلك، وبيان فَضلِهم؛ يسَّرَ اللَّهُ إتمامَها ونَشرَها .

١٥ - فَصلٌ

في فَضيلةِ كُتُبِ العلمِ وبيانِ الاستغناءِ بها عن مجالسةِ أكثرِ النَّاسِ

حَقيقٌ بمن رزقهُ اللَّهُ علماً وفَهماً أن لا يُضيِّعَ أوقاتهُ سدىً وهَملاً بغيرِ طاعَةٍ، وأن لا يَشغَلَ نَفسهُ باللَّهوِ والبَطالةِ، فهذه حالةٌ لا يَرضاها لنَفسهِ اللبيبُ، ومنزلةٌ يتعوَّذُ منها الأريبُ .

وقَد ذكرَ الإمامُ ابن القيِّم في « مِفتاح دار السَّعادة » عن بعض السَّلف أنَّهُ قال : إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيهِ علماً يُقرِّبني إلى اللَّه، فلا بوركَ لي في طلوعِ شمسِ ذلكَ اليوم .

قال : وفي مثلهِ قال القائل :

فإن مرَّ بي يومٌ ولم أستَفِد هُــــدىً
ولم أكتَسِب علماً فما ذاكَ من عُمري

الحزمُ كلُّ الحزمِ أن يعرفَ الإنسانُ قيمةَ عُمرهِ، ولا يُفنيهِ إلا بطاعةِ اللَّه تعالى؛ أمَا يُرضيه أن يجعَلَ الكتابَ لهُ

أنيساً، ولا يَستبدلَ بهِ من النَّاسِ جليساً، ففي ذلكَ منَ الفوائدِ الجليلةِ ما عَرفهُ أربابُ القلوبِ الواعيةِ، والنُّفوسِ الزَّكيَّةِ .

ولهذا قال الإمامُ ابنُ عبدالقَوي[1] - رحمه اللَّه - :

وفي خَلوةِ الإنسانِ بالعلم أُنسُـــهُ
ويَسلمُ دينُ المَرءِ عندَ التَّوحُــدِ

ويَسلمُ مِن قالٍ وقيلٍ ومِــن أذى
جَليسٍ ومَن واشٍ بَغيضٍ وحُسَّــدِ

فكُن حِلسَ بيتٍ فهو سَترٌ لعَــورةٍ
وحرزُ الفتى عن كلِّ غاوٍ ومُفســدِ

وخيرُ جَليسِ المرءِ كُتْبٌ تُفيــدهُ
عُلوماً وآداباً كَعَقلِ مُؤيَّـــدِ

وخالِطْ إذا خالَطتَ كلَّ مُوفَّــقِ
من العُلما أهلِ التُّقى والتَّعبُّــدِ

---

(١) في « منظومة الآداب »، وهي من أحسنِ وأوسعِ المنظومات العلميَّة الوَعظيَّة .

وقَد شرحها غيرُ واحدٍ مِن أهلِ العلم، أشهرُهم السَّفَّاريني الحنبلي في « غذاء الألباب »، - وَقَد تقدَّمَ العَزْوُ إليهِ مراراً - وهو مطبوعٌ في مجلَّدين .

يُفيدكَ من علمٍ ويَنهاكَ عَن هــوىً
فصاحِبْهُ تُهدى من هُداهُ وتَرشُــدِ

فالعاقلُ إنَّما يُخالطُ الأفاضلَ الأماثلَ من أهلِ التَّعبُّدِ والعِلمِ والرَّزانَةِ والحِلمِ، فإذا لم يجد مَن هذه صفتُهُ، فَليَعكِف على العلمِ، ومطالعةِ كُتبِهِ؛ كما قيل :

العلمُ آنسُ صاحــبٍ أخلو به في وِحدَتي
فإذا اهتمَمتُ فَسَلوتي وإذا خَلَوتُ فلَذَّتـي

قال الفُضلاء : إنَّ الكتابَ هو الجليسُ الذي لا يُنافق ولا يَمَلُّ، ولا يُعاتبكَ إذا جَفَوتهُ، ولا يُفشي سرَّكَ .

وقال بعضُ الوُزراء لبَنيهِ : يا بَنيَّ إذا وَقَفتُم في الأسواقِ، فلا تَقِفوا إلاّ على مَن يبيعُ السِّلاح، أو يبيعُ الكُتُب .

وأرسلَ بعضُ الخُلفاء في طَلَبِ بعضِ العُلماء ليَستأمرهُ، فلماَّ جاءَ الخادمُ إليهِ، وجَدَهُ جالساً وحواليهِ كُتُبٌ، وهو يطالعُ فيها، فقال له : إنَّ أميرَ المُؤمنين يَستَدعيكَ، قال : قُل لهُ : عندي قومٌ من الحُكماءِ أُحادثهم، فإذا فَرَغتُ منهم حَضَرت .

فلماَّ عادَ الخادمُ إلى الخليفة، وأخبرهُ بذلك، قال لهُ : وَيحَكَ ! مَن هؤلاء الحُكماء الذي كانوا عندَهُ ؟ قال : واللَّهِ يا

أميرَ المؤمنين ما كانَ عندهُ أحَدٌ .

قال : فأحضِرهُ السَّاعة كيفَ كان .

فلمَّا حَضَرَ ذلك العالمُ، قال له الخَليفةُ : مَن هؤلاء الحُكماء الذي كانوا عندك ؟ قال : يا أميرَ المؤمنين :

لنا جُلساءٌ ما نَمَلُّ حَديثَهُم
أَلِبَّاءُ مأمونونَ غَيباً ومَشهداً

يُفيدوننا من علمهِم علمَ ما مَضى
ورأياً وتأديباً ومجداً وسُؤدُدا

فإن قُلتَ أمواتٌ فلم تَعْدُ أمرَهُم
وإن قلتَ أحياءٌ فَلستَ مُفنَّدا

فعلمَ الخَليفَةُ أنَّهُ يشيرُ بذلك إلى الكُتب، ولم يُنكر عليهِ تأخُّره .

وقال الجاحظُ : دَخَلتُ على محمَّد بن إسحاق أميرِ بَغداد في أيَّام ولايته، وهو جالسٌ في الدِّيوان، والنَّاسُ مثولٌ بينَ يَديه، كأنَّ على رؤوسهم الطَّير، ثمَّ دخَلتُ إليهِ بعد مدَّةٍ، وهو مَعزولٌ، وهو جالسٌ في خزانةِ كُتُبهِ، وحَواليهِ الكُتُب والدَّفاتر والمساطر، فما رأيتهُ أهْيَبَ منهُ في تلكَ الحالِ .

وقال أبو الطيِّب :

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرجُ سابحٍ
وخيرُ جَليسٍ في الزَّمانِ كتـــابُ[1]

○○○○○

---

(١) وفي كتابي « حليَةُ الكتاب، وبُلغَةُ المُطالع » فوائدُ غاليةٌ في بيانِ أهمِّيَّةِ الكتاب، وما قيلَ فيه، وما يتَّصلُ به، فراجعهُ .

١٦ - فَصلٌ

في تَنبيهِ ذوي الأفهامِ على نُبذةٍ من فضائلِ الإمامِ شيخِ الإسلام ومُؤلَّفاتهِ العِظام

إنَّ مَن اختصَّهُ اللَّهُ تعالى بشرفِ المنزلةِ، وأنعمَ عليهِ بعُلُوِّ المرتبَةِ، ونظرَ بعين العَدلِ والإنصاف، وجانَبَ جانِبَ الاعتساف، وترفَّعَ عن تقليدِ أربابِ الأغراضِ الرَّديَّة، وأخلَصَ للَّهِ النيَّة، علمَ يقيناً مَزيَّة مؤلَّفات شيخِ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه اللَّه -، وتبيَّنَ لهُ أنَّها أجلُّ مؤلَّفاتِ العُلماء، كما أنَّهُ علاَّمةُ الأعلام.

سابَقَ الأئمَّةَ الكبار، وجاراهم في ذلك المضمار، وظهَرَت للذَّكيِّ اللبيبِ صحَّةُ أقواله، **لقوَّةِ أدلَّتها**، كالشمسِ في رابعَةِ النَّهار، **فأعشت شمسُ فضائلهِ، وانتصارُه للسُّنَّة السَّنيَّة خفافيشَ البِدَع**[1]، وأربابَ العِنادِ، فعاداهُ لذلكَ

(١) كمثلِ مَن جَهِلَ قَدرَ نَفسهِ، ورقَّ دينُهُ، وطاشت ظنونُهُ، الذي =

الأغمار، **فتجرَّدَ للذَّبِّ عنهُ**، ونَشرِ فضائلهِ احتساباً، خلائقُ من العُلماء العاملين ذوي التَّقوى، وقوَّة الإيمان واليقين، فألَّفوا في ذلك الكُتُب المُستقلَّة .

فمنها : « مناقبهُ »[1] للإمام ابن عبدالهادي، و « مناقبهُ »[2] للإمام الحافظ سِراجِ الدِّين البزَّار، و « مناقبهُ » للشيخِ الإمام شهاب الدِّين العُمري[3]، وكتاب « الحميَّةِ الإسلاميَّة في الانتصار لأبن تيميَّة » للإمام أبي المُظفَّر يوسُف العِبادِيِّ العُقيَلي السُّرَّمَرِّي، ثمَّ الدِّمَشقي، ومنها: « الرَّدُّ الوافِر » للحافظ ابن ناصر الدِّين الدِّمَشقي، ومنها : « القَولُ الجليّ في تَرجمةِ ابن تيميَّة الحنبليّ » للإمام صَفيِّ الدِّين النَّابُلسيِّ، ومنها : « الكواكبُ الدُّرِّيَّة في مناقب ابن تيميَّة »، للعلاَّمة الشيخ مَرعي الحنبلي الجليل صاحب « الغاية » و « الدَّليل »، ومنها: « جلاءُ العَينَين » للعلاَّمة

= أرسَلَ لسانَهُ فيه، وسوَّدَ الرَّسائلَ في تكفيرهِ وتَضليلهِ ... مِن غَيرِ وازعٍ ولا رادعٍ، **فاللّهُ المَوعِدُ** .

(١) وهو المسمَّى « العُقود الدُّرِّيَّة »، مطبوعٌ .

(٢) وهو المسمَّى « المناقب العَليَّة » مَطبوعٌ -وسائرُ الكتب الأخرى-.

(٣) واسمهُ أحمَد بن يحيى بن فَضل اللّه، توفِّي سنة (٧٤٩ هـ) ترجمتهُ في « الدُّرر الكامنة »(١/٣٣١) .

خَيرالدِّين الآلوسيِّ، ردَّ به الأباطيلَ التي ذُكِرَت في « الفتاوى الحديثيَّة »[1] وبيَّنَ بُطلانها، وأنَّها زورٌ وكذبٌ وبُهتانٌ على شيخِ الإسلام – رضيَ اللَّهُ عنهُ –، فجزاهُ اللَّه تعالى أحسَنَ الجزاء .

ومنها غيرُ ذلك مِمَّا يطولُ ذِكرهُ ويَصعُبُ حَصرُهُ .

وأمَّا مَن أثنى عليه، ومَدحهُ في أثناء كتبِ التَّراجم والطَّبقات، فَخَلقٌ كثيرٌ، وجمٌّ غفيرٌ[2]، لا يُحصيهم إلاّ الذي خَلَقهم .

ورحِمَ اللَّهُ الإمامَ ابنَ دَقيقِ العيد، فَلَقَد أنصَفَ في المقالِ لَمَّا سُئِلَ عن شيخِ الإسلام الإمام ابن تيميَّة – وكان قَد اجتَمَعَ به – فقال : **رأيتُ رجلاً سائرُ العلومِ بينَ عَينيهِ، يأخُذُ منها ما شاءَ، ويَدعُ ما شاء**[3].

وقال العلاَّمةُ ابنُ الوَردِيِّ في « تاريخهِ »[4] لَمَّا ذكرَ شيخَ

---

(١) (ص: ١١٥–١١٧) لابن حَجَر الهَيتَمي .

(٢) انظر ثَبَت مصادِر ترجمتهِ الذي أُودعتهُ مقدِّمتي على كتاب « التَّذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار » (ص: ١٣–١٤) لابن شيخ الحزَّامين.

(٣) « تاريخ ابن الوَردي »(٢/٤١٠) .

(٤) (٢/٤٠٨) .

الإسلام : « وهو عَجيبٌ في استحضارِهِ، واستخراجِ الحُجَجِ منه – يعني : الحديث –، وإليه المُنتهى في عَزوِهِ إلى الكُتُب السِّتَّة، و « المُسنَد »؛ بحيثُ يَصدُقُ عليهِ أن يُقال : **كلُّ حَديثٍ لا يَعرفهُ ابنُ تيميَّة فَليَسَ بحديثٍ**، ولكن الإحاطَةُ للَّه تعالى، غيرَ أنَّهُ يغترفُ فيهِ من بَحرٍ، وغيرهُ من الأئمَّة يغترفونَ من السَّواقي » .

فتأمَّل ما في هذه الشهادَةِ من هذا الإمام، لشيخِ الإسلام مِمَّا يَدلُّ على كمالِ فَضلهِ، وجلالةِ قَدرِهِ .

وقال في « رحلتهِ » لَمَّا ذَكرَ علماءَ دمشق، ما نصُّه :

« **وتَركتُ التَّعصُّبَ والحميَّة، وحَضرتُ مجالسَ ابن تيميَّة**، فإذا هو بيتُ القَصيدة، وأوَّلُ الخَريدة[1]، عُلماءُ زمانهِ فَلَكٌ هو قُطبهُ، وجسمٌ هو قلبهُ، يزيدُ عليهم زيادةَ الشمسِ على البَدرِ، والبَحرِ على القَطرِ، حَضَرتُ بينَ يديه يوماً، فأصبتُ المعنى، وكَنَاني، وقبَّل بين عَينيَّ، وقُلتُ :

إنَّ ابنَ تيميَّةَ فــي ... كلِّ العلوم أوحَدُ
أحييَتَ دينَ أحمدٍ ... وشرعَهُ يا أحمَــدُ »

(١) هي اللؤلؤة لم تُثقَب .

وللَّهِ دَرُّ الإمام ابن قاضي الجَبَل الحَنبليِّ فما أَلطَفَ قولَهُ وأحسَنَهُ :

نبيِّي أحمَدٌ وكذا إمامـــــي
وشيخي أحمَدٌ كالبَحرِ طامي
واسمي أحمَدٌ فلذاكَ أرجـــو
شفاعةَ سيِّدِ الرُّسْلِ الكــرامِ

يَعني بقوله : « وشيخي أحمَد » شيخ الإسلام ابنَ تيميَّة، فهو أحمَد بن عَبدالحَليمِ بن عبدالسَّلامِ، رحمهم اللَّه تعالى .

وقال أبو الحجَّاج المزِّي - وهو مِن أصحابِ شيخِ الإسلام - : « ما رأيتُ مثلهُ، ولا هو رأى مثلَ نَفسِهِ، **وما رأيتُ أحداً أعلمَ بكتابِ اللَّهِ وسُنَّةِ رسولهِ، ولا أتبَعَ لهُما منهُ** » .

وقال الإمامُ العالمُ العلاَّمةُ شهابُ الدِّين أبو العبَّاس أحمَد بن فَضلِ اللَّهِ العُمَريُّ الشافعيُّ في مَرثيَّتهِ المشهورةِ التي رَثا بها شيخَ الإسلام :

وَلَمَ يكُن مِثلَهُ بعدَ الصَّحابةِ في
علمٍ عظيمٍ وزُهدٍ ما لَهُ خطَـــرُ

طَرِيقةُ كانَ يمشي قبلَ مِشيتــهِ
بها أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ أو عُمَــرُ
فَرْدُ المذاهِبِ في أقوالِ أربعَــةٍ
جاؤوا على أثَرِ السُّبَّاقِ وابتَدَروا
لَمَّا بَنوا قَبلهُ عَليا مَذاهِبِهــــم
بنى وعمَّر منها مِثلَ ما عَـمَروا
مثلُ الأئمَّةِ قَد أحيا زمانهـــم
كأنَّهُ كان فيهم وهو مُنتـظَــرُ
إن يَرفعوهم جميعاً رفعَ مُبتدإٍ
فحقُّهُ الرَّفعُ أيضاً إنَّهُ خَـبَــرُ

وقال الإمامُ الحافظُ الذَّهبيُّ في « معجمِ شيوخهِ »[1] لما ذكرَ شيخَ الإسلام – رضيَ اللَّهُ عنهُ – : « وهو أكبرُ من أن يُنبَّه على سيرتهِ مثلي، فلو حَلَفتُ بينَ الرُّكنِ والمقامِ : أنِّي ما رأيتُ بعَيني مثلَهُ، وأنَّهُ ما رأى هو مِثلَ نَفسهِ، لما حَنثتُ » .

وُلدَ – رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ – في عاشرِ ربيعٍ الأوَّل سَنَةَ ٦٦١هـ إحدى وستِّين وستِّ مئةٍ في حرَّان، وبقيَ فيها إلى أن بَلَغَ سَبعَ سنين، ثمَّ بَعدَ ذلك هاجَرَ والدُهُ به وبإخوتهِ إلى

(١) لَم أرَ هذا الكلامَ في « معجم شيوخ الذَّهبي »، ولكنِّي رأيتُ =

الشام، فنشأ بدِمَشق أتمَّ إنشاءٍ وأزكاهُ، وأنبتَهُ اللَّهُ أحسنَ النَّبات وأوفاهُ .

وكانَت مَخايلُ النَّجابَةِ عليه في صغَرهِ لائحةً، ودليلُ العِنايَةِ فيه واضحةً، وحجَّ سنة ٦٩١هـ إحدى وتسعين وستِّ مئةٍ، وهي السَّنَةُ التي ولدَ فيها الإمامُ ابنُ القيِّم تلميذُ شيخِ الإسلام .

وتُوفِّيَ رضيَ اللَّهُ عنهُ في دِمَشق لَيلةَ الاثنين من ذي القعدة سنة ثمانٍ وعشرين وسبعِ مئةٍ هجريَّة .

تنبيهٌ : إذا تأمَّل العاقلُ المُنصفُ سيرَةَ هذا الإمام، وما جَرى له من خصومهِ من المحَن والاعتراضات، وتبيَّنَ له صحَّةُ أقوالهِ، **وقوَّةُ أدِلَّتها**، عَلمَ أنَّ الحاملَ لهم على ذلك الخلافُ في العقائد، فإنَّهُ – رضيَ اللَّهُ عنه – من الأئمَّة المُثبِتَة[1]، **المتمسِّكين بعقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة**، المدافعين عنها، الذَّابِّين عن حِماها؛ حتَّى أُنشدَت بذلك الأشعارُ، فمن ذلك قولُ بعضُ الفُضلاء :

= نحوَهُ في « المعجم المُختصِّ بِمُحدِّثي العَصْرِ » (ص: ٢٥) لهُ .

(١) لصفاتِ الباري جلَّ وعَلا، وعُموم دلائل الكتاب والسُّنَّة .

إن كانَ إثباتُ الصِّفاتِ جميعها

مِن غيرِ كيفٍ موجباً لَومـــــي

وأصيرُ تيَميَّاً بذلك عندكـــــم

فالمُسلمونَ جميعهم تيمـــــي

وبسببِ ذلك ألزموهُ بلوازِمَ[1] هو منها بريءٌ، كالتَّجسيم الذي جَرَت عادَةُ المُعطِّلَةِ النُّفاةِ أن يُطلقوهُ على أهلِ السُّنَّةَ المُثبتين للصِّفات، وكُتُبُ الشيخ – رضيَ اللَّهُ عنهُ – طافحةٌ بإنكارِ هذا اللاَّزم، فإلزامهم إيَّاه باطلٌ .

قال – رضيَ اللَّهُ عنه – في « شرحِ حَديثِ النُّزول » في أثناء كلام مفيدٍ :

« بل الرَّبُّ – سبحانهُ وتعالى – مَوصوفٌ بالصِّفات، وليسَ جسماً مُركَّباً، لا مِن الجواهرِ المُفرَدَة، ولا مِن المادَّةِ والصُّورَةِ .

قلتُ : الأوَّل، قولُ أهلِ الكلامِ المُبتَدع، والثَّاني : قولُ الفلاسفَةِ .

ويعني بالمادَّةِ : الهُيولَىٰ بزَعمهم » .

---

(١) ولازمُ المذهب ليس بمذهب، كما هو الحقُّ عند الأُصوليِّين .

وقال في مَوضع آخَر من هذا الكتاب : « فالجسمُ في اللغة هوَ البَدنُ، واللّهُ منزَّهٌ عن ذلك » .

وقال – رحمه اللّه – في « الرّسالة المدنيَّة »[١] – بعدَ كلامٍ مهمٍّ – ما نصُّهُ : « فإنَّ أقصى ما يَذكُرُهُ المتكلِّم[٢]، – يعني في نَفي الصفات الخبريَّة – قولَهُ: ﴿ قُل هوَ اللّهُ أحد ﴾ وقولَه : ﴿ لَيسَ كَمِثلهِ شيءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وقولَه تعالى : ﴿ هَل تَعلَمُ لهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم: ٦٥]، وهؤلاء الآياتُ إنَّما تدلُّ على انتفاءِ التَّجسيم والتَّشبيهِ » انتهى .

فَقَد صرَّحَ – رضيَ اللّهُ عنهُ – في نَفي التَّجسيم، وأنَّ القرآنَ يدلُّ على انتفائهِ، **فَهَل بعدَ هذا البيانِ حجَّةٌ لُمبطلٍ ؟!**

وقال – رحمه اللّه تعالى – في « تَفسير سورة الإخلاص » : « أمَّا القَولُ بأنَّ اللّه سبحانهُ مُركَّبٌ مُؤلَّفٌ من أجزاءٍ، وأنَّهُ يقبلُ التَّجزُّؤَ والانقسامَ والانفصال، فهذا باطلٌ شرعاً وعَقلاً » . انتهى، فتأمَّلهُ .

وصرَّحَ – رضيَ اللّهُ عنه – في ردِّهِ على النَّصارى[٣]

---

(١) (ص: ٣٦٧-٣٦٨ – ضمن « مجموع الفتاوى » ج٦) .

(٢) في « مجموع الفتاوى » : « المتكلّف »، ولعلَّ ما هنا أصوب .

(٣) وهو المسمَّى « الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دينَ المسيح »، =

– وغيرِهِ – بتكفيرِ المجسِّمَة .

وقال في « الرِّسالة المدنيَّة »[1] : « لا يختلفُ أهلُ السُّنَّة أنَّ اللَّه – سبحانهُ وتعالى – ليسَ كمثلِهِ شيءٌ، لا في ذاتهِ، ولا في صفاتِهِ، ولا في أفعالِهِ، بل أكثرُ أهلِ السُّنَّة من أصحابنا وغَيرهم يُكفِّرونَ المشبِّهةَ والمجسِّمةَ » . انتهى .

فهذه نصوصُ شيخ الإسلام – رضيَ اللَّهُ عنه – صريحةٌ في نَفي ذلك اللاَّزم المَذموم، فهَل يَليقُ بعاقلٍ نسبتُهُ إليهِ مع تصريحِهِ ببُطلانهِ ؟!

ولكنَّهُ داءُ الأُمَمِ قَد دبَّ فيهم[2]، نعوذُ باللَّهِ منَ

= مطبوعٌ في أربعةِ أجزاء .

(١) (ص: ٣٥٦ – ضمن « مجموع الفتاوى » ج٦) .

(٢) يُشيرُ المؤلِّف – رحمه اللَّه – إلى قولِ النَّبيِّ ﷺ : « دبَّ إليكم داءُ الأُمَمِ قبلكُم؛ الحسدُ والبَغضاءُ، هي الحالقة، حالقةُ الدِّين، لا حالقةُ الشعر » .

« وهو حديثٌ حَسَنٌ بمجموعِ طريقَيهِ عن ابن الزُّبير وأبي هُريرَة »، كما قال شيخنا في مقدِّمة « سلسلة الأحاديث الضَّعيفة »(١/٢٩– ط ١٤١٢) .

وانظر « الإرواء »(٧٧٧)، و « الصَّحيحة »(٤/٣٥٥) وقارن بـ « مشكلة الفقر »(٢٠)، و « نَصب الرَّاية »(٤/٣٥٥)، و « مختصر زوائد البزَّار »(رقم: ١٦٩٠) للحافظ ابن حَجَر .

الخِذلان .

تتمَّةٌ : كان شيخُ الإسلامِ – رضيَ اللَّهُ عنه – يكرَهُ إطلاق الألفاظِ المُبتدَعة ، فلذلكَ ظنَّ مَن لم يُمارس كُتُبَهُ أنَّهُ يقولُ بخلافِ مَذهبِ أهلِ السُّنَّة ، وحاشاهُ مِمَّا رماهُ به أعداؤهُ ، وللَّه دَرُّهُ – روَّحَ اللَّهُ روحَهُ ، ورضيَ عنه – حيثُ قال في وَصفِ النَّاقمين عليه ، وأحسَنَ في المقال :

لَو لم تكُن لي في القلوبِ مَهابـةٌ
لم يَطعَنِ الأعداءُ فيَّ ويَقدَحـــوا
كاللَّيثِ لَمَّا هِيبَ خُطَّ لهُ الزُّبـــى
وعَوَت لِهَيبَتهِ الكلابُ النُّبَّــــحُ
يَرمونَني شزْرَ العيونِ لأنَّنـــــــي
غلَّستُ في طَلَبِ المعالي وصبَّحوا

وَلَقَد اقتَدَيتُ به – رضيَ اللَّهُ تعالى عنه – في الإعراضِ عن الجاهلين المُعتَدين المحرِّفين الحاسدين، حيثُ وَقَعَت لي عبارَةٌ في « الكواكب »[1] في شأنِ المَهديِّ المُنتَظر، فَهِمَ منها بَعض النَّاسِ أنِّي أُنكِرُ مجيئَهُ ، وهذا غلطٌ أو تحاملٌ ، فإنِّي لا

(١) هو « الكواكب الدُّرِّيَّة على الدُّرَّةِ المُضيئة » في العقيدة .

أُنكرُ مجيئهُ، ولكنِّي أقولُ : إنَّ جَميعَ الأحاديثِ التي فيها ذِكرُ المَهديِّ ضِعافٌ على كثرتها، مع أنَّها مُعارضَةٌ بمثلها[1].

ومن المقرَّرِ عندَ عُلماءِ الآثار أنَّ الحديثَ الضَّعيفَ لا يوجبُ العَمَلَ، فَضلاً عن وجوبِ الاعتقادِ بمدلولهِ، وإنَّما تنازَعوا : هَل يَجوزُ العَمَلُ بالحديثِ الضَّعيف، أو لا[2]؟

فقال الإمامُ أبو بكر بن العَربيِّ شارح « سُنَن التِّرمذي » : لا يجوزُ مُطلقاً .

وقال غيرهُ : يجوزُ في فضائلِ الأعمالِ، واشترَطوا لذلك شروطاً، منها : أن لا يُعتقدَ عندَ العَمَلِ ثبوتُهُ، لئلاّ يُنسَبَ إلى النَّبيِّ ﷺ، وإلى هذا ذهَبَ العزُّ بن عبدالسَّلام، وابنُ دقيقِ

---

(١) لكنَّها تَتقوَّى بهذه الكثرةِ، كما جَزَمَ به غيرُ واحدٍ من عُلماءِ الحديثِ، فانظر بحثاً بديعاً ماتعاً في تقرير هذه المسألة، في « سلسلة الأحاديث الصَّحيحة »(رقم: ١٥٢٩) لشيخنا الألباني، وفيه سَرْدُ أسماء عددٍ من العُلماء الذي صحَّحوا الحديث .

ولم أفهم قولَ المؤلِّف : « مع أنَّها مُعارضةٌ بمثلها » ! فما هو المُعارِضُ لها ؟ وأينَ هو ؟!

(٢) وفي رسالتي « التَّعريف بأحكام العَمَل بالحديث الضَّعيف » بحوثٌ نافعةٌ إن شاءَ اللَّه في تَقريرِ الحقِّ في هذه المسألة .

يسَّر اللَّهُ إتمامَها .

العيد، كما نَقَلَهُ عنهما الحافظ ابن حجرٍ، ونقلهُ عنهُ تلميذهُ السَّخاويُّ في « القَولِ البَديع »[1] .

قالهُ الشَّبْرَخيتي في « شرحِ الأربعينَ النَّوَوِيَّة »، وبسَطَ الكلامَ في هذا البَحث بسطاً مُفيداً، **والحقُّ ضالَّةُ المؤمن**[2] **أينَ ما وجَدهُ التقَطهُ** .

وقال الإمامُ مُوفَّق الدِّين بنُ قدامَة في كتابِ « ذمِّ التَّأويل »[3] : « والأحاديثُ الضَّعيفة؛ إمَّا لِضَعفِ رُواتها، أو جَهالتهم، أو لِعلَّةٍ فيها، فلا يجوزُ أن يقالَ بها، ولا اعتقادُ ما فيها، بل وجودها كعَدمِها »[4]. انتهى .

---

(١) (ص: ٣٦٣) .

(٢) ومِن الأحاديث المشهورة على الألسنة : « الكلمةُ الحكمةُ ضالَّةُ الحكيم، فحيثُ وَجَدَها فهو أحقُّ بها » .

رواهُ الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، والعقيلي في « الضُّعفاء » (٦١/١)، وابن عدي في « الكامل » (٢٣٢/١) .

وَقَد انفَصَلَ ابنُ الجوزي في « العلل المتناهية » (١١٤) إلى الحُكم عليهِ بالضَّعف الشديد .

(٣) (ص: ٤٧ - تحقيق أخينا بَدر البَدر) .

(٤) أي : في باب العقائد .

وإذا كانَ هذا في الصّفات التي يكونُ مُنكرها على خَطرٍ عظيمٍ، فكيفَ بما نحنُ فيه ؟!

على أنِّي لا أُنكرُ مَجيءَ المَهديِّ، ولكنِّي أقولُ : لا يجبُ اعتقادُ مَجيئهِ[1]، لما سمِعتَ، واللَّه أعلم .

○○○○○

---

(١) بل لا يلتقيان !! فهل لا تُنكرُ مجيءَ المهدي اعتقاداً أم لا ؟ إذ قضيَّةُ الإنكارِ وعَدَمِها اعتقاديَّة !

والصَّوابُ وجوبُ اعتقادِ مجيءِ المهدي، وهو مِن عقائد أهل السُّنَّة المَرضيَّة .

وانظر كتاب « المَهدي حقيقة لا خُرافة » لأخينا الشيخ محمَّد بن إسماعيل وفَّقهُ المولى .

وللشيخين الفاضلين : حمود التويجري، وعبدالمحسن العبَّاد كتابان بديعان في إثبات ظهور المَهديِّ، فَلْيُنظَرا .

١٧ - فَصْلٌ

في ذكرِ كتابٍ كتَبهُ بعضُ العلماءِ لأحدِ تلامذَةِ شيخِ الإسلام رضيَ اللَّه تعالى عنهُ

ولَّما كنتُ في بَغدادَ، رأيتُ مكتوباً عندَ بعضِ الفضلاءِ أرسلَهُ بَعضُ علماءِ الشافعيَّة المعاصرين لشيخِ الإسلام لأحدِ تلامذةِ الشيخ، رحمهم اللَّه تعالى، ثمَّ رأيتُ شيخَنا[١] نقلهُ في كتابهِ « غايَةِ الأمانيِّ »، ونحنُ ننقلهُ هنا عن « غاية الأماني » :

قال مصنِّفهُ - أمدَّنا اللَّهُ بحياتهِ - : وقَد رأيتُ كتاباً كُتِبَ على ظَهرِ تَرجمةِ شيخِ الإسلام، وبيانِ مناقبهِ، وهي « الدَّرَرُ البهيَّة في ترجمةِ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة » للحافظ شمسِ الدِّين بن عبدالهادي المَقدسيّ، وذلك الكتابُ أرسلهُ

(١) وهو العلاَّمة محمود شكري الآلوسي رحمه اللَّهُ تعالى، وانظر « غاية الأماني »(١/٣٨٧-٣٨٩) لهُ.

بعضُ أفاضلِ العراق المعاصرين لشيخِ الإسلام؛ وكان من أكابرِ الشافعيَّة، وهو العلاَّمة الشيخ عبداللَّهِ بن حامدٍ، وهذا كتابهُ :

(بسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم، من أصغرِ العِبادِ عبداللَّه ابن حامدٍ إلى الشيخِ الإمامِ العالم العامِلِ، قُدوَةِ الأفاضلِ والمحافلِ، المُحامي عن دينِ اللَّه، والذَّابِّ عن سُنَّةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، المُعتَصِمِ بحَبلِ اللَّهِ، الشيخِ المكرَّم المبجَّل أبي عبدِاللَّهِ[1] – أسبغَ اللَّهُ عَليهِ نِعَمه، وأيَّدَ بإصابةِ الصَّوابِ لسانَه وقَلمَه، وجَمَعَ لهُ بينَ السَّعادتين، ورفعَ درجَتهُ في الدَّارين، بمنِّه ورَحمتهِ .

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتهُ .

أمَّا بَعد : فإنِّي أحمَدُ إليكَ اللَّهَ الذي لا إلهَ إلاَّ هو .

ثمَّ وافاني كتابُكَ، وأنا إليكَ بالأشواق، ولم أزَل سائلاً ومُستخْبراً الصَّادرَ وَالوارِدَ عن الأنباءِ التي طابَ مَسموعها، وسرَّ ما يَسُرُّ منها .

وما تأخَّرَ كتابي عنكَ هذه المدَّةَ مَلَلاً ولا خَلَلاً بالمودَّةِ، ولا تَهاوُناً بحقوقِ الإخاء، **حاشا أن يَشوبَ الأُخوَّةَ في اللَّهِ**

(١) هو ابن القيِّم رحمه اللَّه، كما ستأتي الإشارةُ إليهِ .

جَفاء، ولا أزالُ أتعلَّل بعدَ وفاةِ الشيخِ الإمامِ، إمامِ الدُّنيا - رضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ - بالاسترواح إلى أخبارِ تلامذتهِ وإخوانهِ، وأقاربهِ وعشيرتهِ، والخصِّيصين به، لما في نَفسي من المحبّةِ الضَّروريّة التي لا يَدفعها شيءٌ، على الخُصوصِ لَّما اطَّلعتُ على مباحثهِ واستدلالاتهِ التي تُزَلزلُ أركانَ المُبطلين، ولا يَثْبُتُ في مَيدانها سَفسَطةُ المُتَفلسفين، ولا يقفُ في حَلباتها أقدامُ المُبتَدعين من المتكلِّمين .

وكنتُ قبل وُقوفي على مباحثِ إمامِ الدُّنيا - رحمهُ اللَّه - قَد طالعتُ مصنَّفاتِ المتقدِّمين، ووقفتُ على مقالاتِ المتأخِّرين من أهلِ الإسلام[1]، فرأيتُ فيها الزَّخارفَ والأباطيلَ التي يأنَفُ المسلمُ الضَّعيفُ في الإسلامِ أن يخطُرَ ببالهِ فَضلاً عن القَويِّ في الدِّين، فكانَ يُتعِب قَلبي، ويُحزنني ما يَصيرُ إليهِ الأعاظمُ من المقالاتِ السَّخيفةِ، والآراءِ الضَّعيفةِ التي لا يَعتَقدُ جوازَها آحادُ الأُمّة .

وكُنتُ أُفتِّشُ على السُّنَّة المحضةِ في مُصنَّفات المُتكلِّمين من أصحابِ الإمامِ أحمَدَ - رحمهُ اللَّه - على الخُصوص، لاشتهارهم بمَنصوصاتِ إمامهم في أُصولِ العقائد، فلا أجدُ

---

(١) كالفلاسفة، والمُتكلِّمين، والمُتصوِّفة .

عندهُم ما يَكفي، وكنتُ أراهم يتَناقَضونَ، إذ يؤصّلونَ أُصولاً يَلزمُ فيها ضدُّ ما يَعتقدونهُ، ويَعتقدونَ خلافَ مُقتَضى أدلَّتهم .

فإذا جَمَعتَ بينَ أقاويلِ المُعتزلةِ والأشعريَّةِ، وحنابلَةِ بَغداد[1]، وكرّاميَّةِ خُراسان، أرى أنَّ إجماعَ هؤلاء المتكلِّمين في المسألةِ الواحدَةِ على ما يُخالفُ الدَّليلَ العَقليَّ والنَّقليَّ، فيَسوؤني ذلك، وأظلُّ أحزَنُ حُزناً لا يَعلمُ كُنهَهُ إلاّ اللّهُ تعالى، حتّى قاسيت من مكابَدتي هذه الأُمورَ شيئاً عظيماً، لا أستطيعُ شرحَ أيْسَرِهِ، وكنتُ ألتجىءُ إلى اللّه - سبحانهُ وتعالى -، وأتضرَّعُ إليهِ، **وأهربُ إلى ظواهرِ النُّصوص،** وأُلقي المعقولاتِ المتباينةَ، والتَّأويلات المَصنوعة، لِنُبُوِّ الفِطرَةِ عن قَبولها .

ثمَّ قَد تشبَّثَتْ فطرَتي بالحقِّ الصَّريح في أُمَّهات المسائل، غيرَ مُتجاسرَةٍ على التَّصريح بالمُجاهرة قَولاً، وتَصحيحاً للعَقدِ، حيثُ لا أراهُ مأثوراً عن الأئمَّة وقدماءِ السَّلف[2]، إلى أن قدَّرَ اللّهُ - سبحانهُ وتعالى - وقوعَ تَصنيفِ الشيخِ الإمام إمام الدُّنيا في يدي قُبَيلَ وقعتهِ الأخيرَةِ بقليلٍ، فوجَدتُ فيه ما

(١) ليسوا سواءً !

(٢) أي : الخَوضُ فيه ردّاً على الشبهات، ونقضاً للإشكالات .

بَهَرني في **مُوافقَةِ فِطرَتي، لما فيهِ من عَزوِ الحقِّ إلى أئمَّةِ السُّنَّة، وسلَفِ الأُمَّة**، مَعَ مُطابقَةِ المَعقولِ والمَنقولِ، فبُهِتُّ لذلكَ سروراً بالحقِّ، وفَرَحاً بوجودِ الضَّالَّة التي ليسَ لِفَقدها عِوَضٌ، فصارَت محبَّةُ هذا الرَّجُل - رحمه اللَّه - محبَّةً ضروريَّةً، تَقصُرُ عن شرحِ أقلِّها العبارةُ ولو أطنَبتُ .

ولَمَّا عزَمتُ على المُهاجرَة إلى لُقياه، وَصَلني خَبَرُ اعتقالهِ، وأصابني لذلك المُقيمُ المُقْعِدُ .

ولمَّا حَجَجتُ سنة ثمانٍ وعشرين وسَبع مئةٍ، صمَّمتُ العَزمَ على السَّفَر إلى دمَشقَ لأتوَصَّلَ إلى ملاقاتهِ ببذلِ ما أمكنَ منَ النَّفسِ والمالِ للتَّفريجِ عنهُ، فَوافاني خَبَرُ وفاتهِ - رحمه اللَّه تعالى - مع الرُّجوع إلى العراقِ قُبيلَ وصولي إلى الكوفة، فَوَجَدتُ عليهِ ما لا يجدُ الأخُ على شقيقهِ - وأستغفرُ اللَّه - بَل ولا الوالدُ الثَّاكلُ على وَلَدِهِ، وما دَخَلَ على قَلبي مِن الحُزنِ لَموتِ أحدٍ من الوَلَدِ والأقاربِ والإخوانِ، كما وَجَدتُهُ عليه - رحمه اللَّه تعالى -، ولا تخيَّلتهُ قطُّ في نَفسي، ولا تمثَّلتُهُ في قَلبي، إلاّ ويتجدَّدُ لي حُزنٌ جديدٌ كأنَّهُ مُحدَثٌ .

وواللَّهِ ما كتَبتُها إلاّ وأدمُعي تتَساقَطُ عِندَ ذكرهِ أسفاً على فِراقهِ، وعدمِ ملاقاتهِ، فإنَّا للَّهِ وإنَّا إليهِ راجِعون، ولا حَولَ

ولا قوَّةَ إلاّ باللَّه العليِّ العَظيم .

وما شرحتُ هذه النُّبذَة من محبَّةِ الشيخِ - رحمه اللَّه تعالى - إلاّ ليتحقَّق بُعدي عن تلك الوُهوم، لكن لَمَّا سَبَقَ الوَعدُ الكريمُ منكُم بإنفاذِ فِهرِس[1] مُصنَّفات الشيخ - رضيَ اللَّهُ عنه - وتأخَّرَ ذلك عنِّي، اعتقدتُ أنَّ الإضرابَ عن ذلكَ نَوعُ تَقيَّةٍ[2]، أولعُذرٍ لا يَسَعني السُّؤالُ عنهُ، فسكتُّ عن الطَّلبِ خَشيَةَ أن يلحَقَ أحداً ضَرَرٌ - والعياذُ باللَّه - بسبَبي، لما كانَ قَد اشتَهَرَ من تلكَ الأحوالِ، فإن أنعمتُم بشيءٍ من مُصنَّفات الشيخِ رحمهُ اللَّه تعالى، كانَت لكم الحَسَنةُ عندَ اللَّه علينا بذلك، **فما أشبهَ كلامَ هذا الرَّجُلِ بالتِّبرِ الخالصِ المُصفَّى !**

وقَد يقعُ في كلامِ غيرهِ من الغِشِّ والشَّبَهِ المدلَّسِ بالتِّبرِ على ما لا يَخفَى على طالِبِ الحقِّ بحرصٍ ولا عدمِ هوىً، ولا أزالُ أتعجَّبُ **من المنتسبينَ إلى حُبِّ الإنصافِ في البَحثِ**،

---

(١) وللعلاَّمة ابن القيِّم رحمه اللَّه كتابُ « أسماءُ مؤلَّفات شيخ الإسلام ابن تيميَّة »، فلعلَّ ما هُنا إشارةٌ إليه، والكتابُ مطبوعٌ .

(٢) خشيةَ بَطشِ أهلِ البِدَع وكَيدهمِ، لا كتقيَّة الشيعة الشنيعة التي هي من أُصولِ دينهم .

المبرِّزينَ على أهلِ التَّقليدِ، أنَّ المعقولاتِ التي يَزعمونَ أنَّ مستندهم الأعظَمَ الصَّريحَ منها ! كيفَ يُباينونَ ما أوضحَهُ الحقُّ، وكَشَفَ عن قِناعهِ ؟

وقَد كانَ الواجبُ على الطَّلبةِ شدَّ الرِّحالِ إليهِ من الآفاقِ ليَرَوا العجبَ .

وما أشبهَ حالَ المباينين له من المنتسبينَ للعلمِ، الطَّالبين للحقِّ الصَّريحِ الذي أعياهم وجدانُهُ، بحالِ قومٍ ذَبَحَهُم العَطشُ والظَّمأُ في بَعضِ المفازاتِ[1]، فحينَ أشرَفوا على التَّلفِ، لمعَ لهم شطٌّ كالفُراتِ أو دجلةَ أو النِّيل، فعندَ مُعاينتهم لذلك اعتَقدوهُ سراباً لا شراباً، فتَولَّوا عنهُ مُدبرين، فتقطَّعَت أعناقهم عَطشاً وظماً، فالحُكمُ للَّهِ العليِّ الكبير .

وما أرسلنا المقابلَةَ من الطَّرفين، ففيهِ تعسُّفٌ، وتُمَهِّدون العذرَ في الإطنابِ[2].

فهذا الذي ذكرتهُ من حالي مع الشيخ، كالقَطرةِ مِن البَحر، وإن أنعمتُم بالسَّلامِ على أصحابِ الشيخِ وأقاربهِ

---

(١) الصَّحاري .

(٢) في حاشية « غاية الأماني »(٣٨٩/١) : « كذا في الأصل، وفي العبارة شيءٌ مِن عَدَم الوُضوح » .

كبيرهم وصغيرهم، كانَ ذلك مُضافاً إلى سابقِ إنعامكُم .

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتهُ، وأنتُم في أمانِ اللَّه تعالى ورعايتهِ، والحمدُ للّه وحدَهُ، وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ وسلِّم .

عبداللَّه بن حامد) .

فإذا تَأمَّلَ الفاضلُ المُنصفُ وصفَ كُتُبِ شيخِ الإسلام بهذا الكتاب، عَلِمَ صدقَ ما قالهُ بعضُ الأئمَّة من أنَّ **الإنسانَ لا يَستطيعُ أن يعرفَ الاعتقادَ الصَّحيحَ الواجبَ اعتقادُهُ إلاّ بقراءَةِ كتبِ ابن تيميَّة، لسلامتها من البدع والتَّناقض، فرحمهُ اللَّه، ورضيَ عنهُ** .

وما ذكرنا هذا الكتابَ إلاّ إرشاداً للطُّلاَّبِ إلى مَعرفَةِ قَدْرِ كُتبِ شيخِ الإسلامِ، حيثُ إنَّ موضوعَ كتابنا هذا هو النَّصيحةُ والإرشادُ إلى طلبِ العلمِ، وبيانُ أسبابِ تحصيلهِ، وآدابهِ، واللَّهُ سبحانهُ وتعالى الموفِّقُ للصَّواب .

خاتمةٌ

نسألُ اللَّهَ حُسنَ الخاتِمَةِ

قَد أكثرَ العلماءُ العاملون، والأئمَّة المتَّقون، من إرشادِ العبادِ إلى ما فيهِ لهم خيرُ الدُّنيا والآخرَة، وهو تَقوى اللَّه تعالى في السرِّ والعلانيَة، وَقَد وصَّى اللَّهُ تعالى جميعَ عبادهِ بالتَّقوى[1]، ووصَّى بها النَّبيُّ ﷺ أُمَّتهُ[2].

فحَفِظَ العلماءُ والأئمَّةُ وصيَّةَ اللَّه تعالى، ووصيَّةَ رسولهِ ﷺ، فَراقَبوا اللَّهَ تعالى، وأمروا بخشيتهِ، وحذَّروا الاغترارَ بسَطوتهِ، كما قالَ الإمامُ الدُّلْجي[3]:

---

(١) كما في قوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكُم ... ﴾ في آياتٍ عدَّةٍ.

(٢) كما في حديثِ العِرباضِ بن ساريَة مَرفوعاً: « أُوصيكُم بتَقوى اللَّه والسَّمع والطَّاعة ... ».

انظر تخريجه في « الدُّرَر العالية »(ص: ٣٢-٣٣ - بتحقيقي).

(٣) في « الفلاكة والمفلوكون »(ص: ١٨٣).

« فلا تَغترَّ بالتَّسَتُّرِ والحيلَةِ، فإنَّ للَّهِ عُيوناً مِنَ الملكوتِ ناظرةً إليكَ، وإنَّ للطَّاعاتِ عَبَقاً وشذىً تَفوحُ على أهلها وإن كتَموها، وللمعاصي نتناً وذَفَراً تَفوحُ على أهلها وإن أخفوها .

وإذا نَزَعتَ عن الغِوايَةَ، فليكُن للَّه ذلك النَّزعُ لا للنَّاس، وكُن توَّاباً رجَّاعاً، أوَّاباً إلى اللَّه، عظيمَ الالتجاءِ إليهِ، والاستعانَةِ بقوَّتهِ، وباهر قدرتهِ، متملِّقاً له، خاضعاً لجلالهِ، وكُن كثيرَ الدُّعاءِ والإلظاظِ بأسمائهِ تعالى، ولهُ الحمدُ، فإنَّ الدُّعاءَ نسبتَهُ إلى استجلابِ المطالبِ كنسبةِ الفِكْرِ إلى استدعاءِ المطلوبِ العلميِّ » .

قال ﷺ : « أَلِظُّوا بِـ : يا ذا الجلالِ والإكرام »[1] .

قال سُبحانهُ وتعالى : ﴿ قُل ما يَعبأُ بكُم رَبِّي لَولا دُعاؤُكُم ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وقال الإمامُ النَّوَوي رحمهُ اللَّه تعالى في بيانِ الوصولِ إلى اللَّه تعالى : وهو بالتَّوبَةِ من جميعِ المحرَّماتِ والمكروهاتِ، وطَلبِ العلمِ بقَدرِ الحاجَةِ إليهِ، والملازمةِ على الطَّهارةِ، وأداءِ الفرائضِ، والرَّواتبِ في أوَّلِ وَقتها جماعَةً،

---

(١) رواه أحمد (٤/١٧٧)، والحاكم (١/٤٩٨)، وغيرهما عن ربيعة ابن عامرٍ، بسندٍ صحيحٍ .

وملازمَة ثمانِ ركعاتِ الضُحى .

قلتُ : وعندنا تُسَنُّ صلاةُ الضُّحى غِبّاً[1]، وأقلُّها ركعتان، وأكثرها ثمانٍ، وستٌّ ركعاتٍ بين المغربِ والعشاء[1]، وصلاةُ الليلِ، والوِترِ، وصومُ الاثنين والخميس، وثلاثةُ الأيّامِ البيضِ، والأيَّام الفاضلَةِ، وتلاوَةُ القُرآنِ بالحُضورِ والتَّدبُّرِ، والإكثارِ من الاستغفارِ، والصَّلاةِ على النَّبيِّ محمَّد ﷺ، ومُلازمَةِ أذكارِ السنةِ وصباحاً ومساءً .

ومنها : « اللَّهمَّ بكَ نُصبحُ وبكَ نُمسي، وبكَ نحيا، وبكَ نموتُ، وإليكَ النُّشور » صباحاً، و «..المصير » مساءً .

« أصبحنا وأصبحَ المُلكُ للَّه، والحمدُ للَّه، والكبرياءُ للَّه، والعَظَمةُ للَّه، والخَلقُ والأمرُ، واللَّيلُ والنَّهارُ وما سَكَنَ فيهما للَّه، اللَّهمَّ ما أصبحَ بي من نِعمَةٍ أو بأحدٍ من خَلقكَ، فمنكَ وَحدَكَ لا شريكَ لكَ، فلكَ الحمدُ ولكَ الشُّكر» ثلاثاً.

« اللَّهمَّ إنِّي أصبَحتُ أُشهِدُكَ وأُشهِدُ حَمَلةَ عَرشِكَ وملائكتَكَ وجميع خَلقكَ، أنَّكَ أنتَ اللَّه لا إلهَ إلاّ أنتَ وحدكَ لا شريكَ لكَ، وأنَّ محمَّداً عبدُكَ ورسولُكَ » أربعاً[2].

---

(١) ولا دليلَ على ذلك ثابتٌ، وكثيرٌ ممَّا سيأتي مثلهُ مِن حيث العَدَد.

(٢) تَقييدُ ذلك بالصَّباحِ والمساءِ لا يَثبتُ، وهو دونَ ذلك صحيحٌ .=

« رَضيتُ باللَّهِ تعالى ربّاً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمَّدٍ نبيّاً ورسولاً » ثلاثاً .

﴿ آمَنَ الرَّسولُ بما أُنزِلَ إليهِ مِن ربِّهِ والمُؤمنونَ كلٌّ آمَنَ باللَّهِ وملائكتهِ وكُتبِهِ ورُسلِهِ لا نُفرِّقُ بيَنَ أحدٍ مِن رُسلِهِ وقالوا سَمِعنا وأطَعنا غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المَصيرُ ○ لا يُكلِّفُ اللَّهُ نَفساً إلاّ وُسعَها لها ما كَسَبَت وعَليها ما اكتَسَبَت ربَّنا لا تُؤاخِذنا إن نَسينا أو أخطَأنا ربَّنا ولا تَحمِل عَلَينا إصراً كما حَمَلتَهُ على الَّذينَ مِن قَبلنا ربَّنا ولا تُحمِّلْنا ما لا طاقَةَ لنا بهِ واعْفُ عنَّا واغْفِر لنا وارْحَمنا أنتَ مَولانا فانْصُرنا على القَومِ الكافرين ﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦] .

﴿ فإن تَوَلَّوا فَقُل حَسْبِيَ اللَّهُ لا إلهَ إلاّ هوَ عَليهِ تَوكَّلتُ وهوَ ربُّ العَرشِ العَظيم ﴾ [التوبة: ١٢٩] سبعاً[1] .

= فانظر « الضّعيفة »(١٠٤١)، و « الصّحيحة »(٢٦٧)، و « الكلم الطيّب »(ص: ٣٤) .

(١) وَرَدَ قراءَة هذه الآية سبعاً في حديثٍ شديدِ الضّعفِ عند ابنِ السُّنّي في « عمَل اليَوم والليلة »(رقم: ٧١) عن أبي الدَّرداء، مرفوعاً، وعندَ أبي داود (رقم: ٥٠٨١) موقوفاً عنه .

وانظر : « ضعيف سنن أبي داود » (رقم: ١٠٨٥) .

﴿ فسُبحانَ اللَّهِ حينَ تُمسونَ وحينَ تُصبِحون ○ ولهُ الحَمدُ في السَّمواتِ والأرضِ وعشيَّاً وحينَ تُظهِرون ○ يُخرِجُ الحيَّ مِن الميِّتِ ويُخرِجُ الميِّتَ مِنَ الحيِّ ويُحيي الأرضَ بَعدَ مَوتِها وكذلكَ تُخرَجون ﴾ [الروم: ١٧-١٩] .

« أعوذُ باللَّهِ السَّميعِ العليمِ منَ الشيطانِ الرَّجيم » ثلاثاً.

﴿ لَو أنْزَلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ ... ﴾ إلى آخرِ سورَةِ الحَشر، و « الإخلاص » و « المعوِّذتين » ثلاثاً .

« بسمِ اللَّهِ الذي لا يضُرُّ مع آسمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ وهُوَ السَّميعُ العَليمُ » ثلاثاً .

« أعوذُ بكلماتِ اللَّه التَّامَّات، من غَضَبِهِ وعِقابِهِ، وشرِّ عبادِهِ، ومن هَمَزاتِ الشياطين، وأن يحضرُون » ثلاثاً .

« أستغفرُ اللَّهَ العظيمَ الذي لا إلهَ إلاّ هوَ الحيُّ القيُّوم وأتوبُ إليهِ » ثلاثاً .

« سُبحانَ اللَّهِ وبِحَمدِهِ» ثلاثاً، « سبحانَ اللَّهِ وبحَمدِهِ، عَدَدَ خَلقِهِ، ورِضى نَفسِهِ، وزِنَةَ عَرشِهِ، ومِدادَ كلماتِهِ » ثلاثاً.

وإذا اتَّسعَ الوَقتُ، فقُل : « سُبحانَ اللَّه، والحمدُ للَّه، ولا إلهَ إلاّ اللَّه، واللَّه أكبر » مئةَ مرَّةٍ .

وَ « لا حَولَ ولا قوَّةَ إلاّ باللّه العليِّ العَظيم » كذلك مِئةَ

مرَّةٍ « لا إلهَ إلاّ اللَّه الملكُ الحقُّ المُبين » كذلك مِئةَ مرَّةٍ .

« لا إلهَ إلاّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ، وله الحمدُ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قَدير » كذلك مِئة مرَّةٍ، أو ثلاثاً .

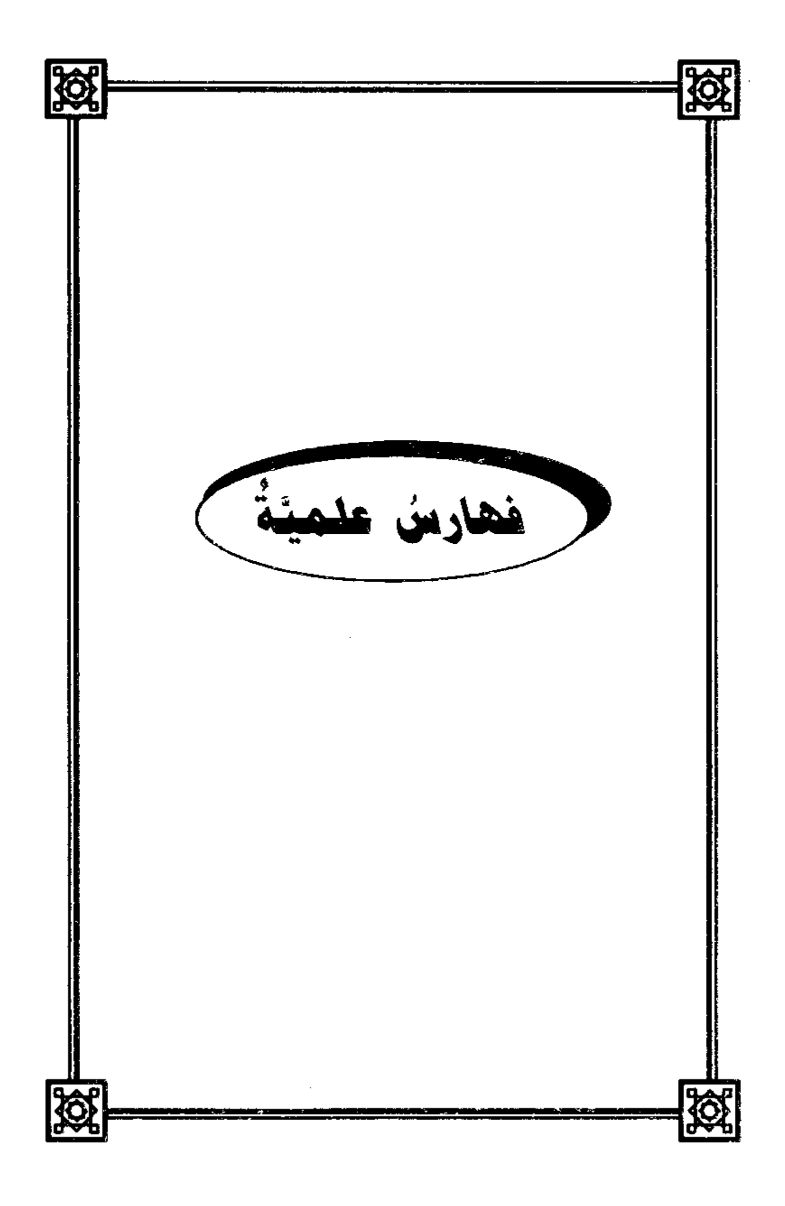
« اللَّهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ عبدِكَ ورسولِكَ ونبيِّكَ وحبيبِكَ النَّبيِّ الأُمِّي وعلى آلهِ وصَحبهِ وسلِّم » ثلاثاً، أو كذلك مِئة مرَّةٍ .

قال الإمام النَّووي – رحمه اللَّه – بعدَ أن ذكرَ ذلك :

وفي هذا القَدرِ كفايَةٌ لذَوي العِنايَةِ، واللَّهُ الموفِّق للهدايَة، وهو يَهدي السَّبيلَ، وحسبُنا اللَّهُ ونعمَ الوَكيلُ .

والحمدُ للَّهِ الذي بنعمتهِ تتمُّ الصَّالحات، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلهِ وأصحابهِ، ومَن تبعهم إلى يومِ الدِّين .

وَقَد وقعَ الفراغُ من تأليفِ هذه الرِّسالة المُفيدةِ إن شاءَ اللَّهُ تعالى بعدَ العَصرِ من يومِ الاثنين الموافق ثلاثاً وعشرين من ذي الحِجَّة سنة ١٣٣٦ هـ ستٍّ وثلاثين وثلاثَ مئةٍ وألفٍ؛ في المدرسةِ الأثريَّة المُنشأة في بلدِ الدَّوحَةِ من بلدانِ قَطَر على يدِ مؤلِّفها الفقير إلى عَفوِ ربِّهِ محمَّد بن عبدالعزيز المانِع، غَفَرَ اللَّه ذنوبَهُ، وستَرَ عيوبَهُ، آمين .


فهارسُ علميَّةٌ

فهرس فوائد التَّعليقات

○○○○○

فِهرس الكتاب